
رواية
سيمي
كوما
شبه غيبوبة
مصطفى تقي

سيمي كوما

شبه غيبوبة

دار النشــــــر:	دار حروف الفارس للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب:	سيمي كوما (شبه غيبوبة)
الـــكـــاتـــب:	مصطفى تقي
رقم الطبعـــة:	الأولى
تاريــخ الطبـع:	2025
رقـــم الإيـداع:	34542 – 2025
الترقيم الدولي:	978-633-8333-98-0

للمراسلة

MostafaTaky@gmail.com

للنشر والتوزيع

إهداء

إلى روح أبي وأمي

إلى الجذور التي أثمرت قلبي،

وإلى الدعوات التي مازالت تظلل حياتي

وإلى روح أبنائي

الذين أودعهم الله في دارٍ خيرٍ من

هذه الدار

هذا الإهداء لأرواحكم، لذكراكم

ولحضوركم الذي لا يغيب

تنويه

جميع أحداث الرواية وأسماء الشخصيات من خيال المؤلف، ولا تمت للواقع بصلة. وأي تشابه بينها وبين الواقع محض صدفة، الرواية بالكامل لا تمثل توجه ديني أو عقائدي، هي فقط عمل أدبي مجرد، مبني في الأساس على فرضيه مستحيلة.

لذا وجب التنبيه

قال تعالى

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

الأية **85** من سورة الإسراء

البداية

ظنّ الجميع حين تعافى يوسف من أثار الحادث أنه عاد لطبيعته، لكنه وحده كان يعلم الحقيقة وأن من مات في تلك الليلة لم يُدفن بعد. والآن، ها هو يعود إلى السطح.

في مساحة رمادية يسكنها من لم يكتمل رحيلهم بعد.
في تلك المساحة يستيقظ يوسف بعد الحادث،
يجد نفسه بين وعيٍ غائم وجسدٍ غريب،
وروحٍ تائهة تبحث عن معنى البقاء.

لكن ماذا لو كانت روحه ليست وحدها؟
وماذا لو عاد ليجد أن جسده أصبح مأهولًا بشخصٍ آخر؟

رحلة بين العلم والغيب، بين الإثم والغفران،
تحكيها رواية سيمي كوما
لتفتح بابًا على عالمٍ لا نراه...

لكننا جميعًا نمرّ بمحاذاته.

المؤلف

غريب في بيتي

المكان شقة يوسف
الزمان 20 ديسمبر 2021- السابعة صباحا
استيقظت بصعوبة كعادتي، لا أعرف لماذا يتحول الانتقال من النوم إلى اليقظة عندي إلى صراعٍ يوميّ، كأنّ الوعي يزحف من عمقٍ مظلم نحو سطحٍ لا يريد جسدي أن يبلغه.

صوت المنبّه كان يصرخ في البعيد، نغمة متقطّعة تشبه صفير قطارٍ يقترب ببطء ورغم الإزعاج لكنّي لم أصل بعد إلى المرحلة التي تدفعني لترك السرير.

بعينين نصف مغلقتين، نظرتُ إلى ندى النائمة بجواري، كانت كالملاك، لا أبالغ إن قلت إنها أجمل ما في حياتي.
طبعتُ قبلةً خفيفة على خدّها، فانتفضت وغطّت وجهها بكفيها قبل أن تدير لي ظهرها. قلت بهمس

- مش وقت الدلع ده خالص يا ندى.

لكنني لم أتلقَّ ردًّا.
ظلّ صوت المنبّه يقرع أذني حتى صار مزعجًا بحق. رفعت الهاتف بيدٍ مرتجفة فرأيت الساعة قد تخطت السابعة.
جلستُ على طرف السرير ببطءٍ شديد، كان جسدي ثقيلاً كأنه كيس مملوء بالرمل، رغم البرد الذي يغلف المكان، لكني لم أشعر ببرودة الأرض، بل بدفء غريب تحت قدمي.
كان منبه الهاتف لايزال يصرخ في يدي، حاولت إيقاف صوته، فتفلت الهاتف من بين أصابعي، حاولت اللحاق به قبل ان يسقط، وكرّرت المحاولة مرارًا دون جدوى حتى ارتطم بالأرض أخيرًا.

في تلك اللحظة، امتدّت يد ندى من جانبي، التقطت الهاتف، نظرت له باستغراب، وأطفأت صوت المنبّه، ثم التفتت في أركان الغرفة وكأنها تبحث عن شيءٍ مفقود.
قالت بصوتٍ عالٍ، يكاد يصل إلى آخر ركن في الشقة.
- يلا بقى يا يوسف، الساعة داخلة على تمانية، اتأخّرت!
استغربت حدّة صوتها، فصرخت فيها بانفعال
- خلاص، صحيت أهو! فيه إيه؟ هو أنا أطرش؟
لكنها لم تجب، أدارت ظهرها، سحبت الغطاء على وجهها وعادت لتغفو في لحظةٍ واحدة، كما تفعل دائمًا.
تركتها وخرجت متثاقلاً نحو الحمّام. ورغم برودة الجو، لكني لم أشعر بها، والأغرب أن بلاط كان دافئًا.
سمعت صوت الماء يندفع من الدش بغزارة، كأن أحدًا يستحمّ الآن.
توقفت مكاني مذهولاً.
إن كنت أنا هنا، وندى نائمة، فمن في الداخل؟
طرقت الباب بقوةٍ وصرخت
- مين جوّه؟
لم يجب أحد.
عدتُ جريًا إلى الغرفة، حاولت إيقاظ ندى. جسدها كان ثقيلاً كأنها تحت تأثير مخدّر، لولا أنفاسها المنتظمة لما صدّقت أنها حيّة.
توالت الأفكار في رأسي كالعواصف
هل اقتحم أحدهم الشقة؟ هل خدرنا؟
هرعت إلى المطبخ أبحث عن سلاح، أمسكت سكينًا كبيرة وعدتُ مسرعًا.
توقف صوت الماء، وانفتح باب الحمّام ببطء.

خرج رجلٌ يرتدي البرنس، ويضع منشفة فوق رأسه، يمشي بهدوءٍ وكأنه في بيته.
لم أتمالك نفسي، اندفعت نحوه بكل قوتي، رفعت السكين، وغرستها في عنقه من الخلف. وخال لي أن الدم تناثر على وجهي،
وفي اللحظة نفسها سمعت ندى تصرخ...ثم اختفى كل شيء.
تبدد المشهد. غاب الوعي
لكن الغياب لم يكن نهاية... بل بداية أخرى في الجهة المقابلة من الوعي.

— ✦ —

فيلسوف تائه

المكان غرفة المدرّسين مدرسة الحرية الثانوية
الزمان قبل يوم واحد 19 ديسمبر 2021 - الواحدة ظهرًا

كان الدخان يملأ الغرفة حتى صار كضباب خفيف يحجب الرؤية. جلس يوسف وسعيد على الطاولة المقابلة للباب، يتبادلان أطراف الحديث، شعر سعيد في هذا اليوم وكأن يوسف الذي يحدثه، ليس هو صديقه القديم. كان يوسف يتحدث وكأن الأفكار لا تأتي من رأسه، بل من مكان أعمق، أبرد، أقدم. وكانت عيناه تلمعان بنظرة مختلفة؛ نظرة مَن يرى العالم بمنظور مختلف... وكأن فيهما خبرة عميقة بالنفس البشرية

بينما انفتح الباب فجأة ودخلت هالة وهي تلوّح بيدها أمام وجهها. قالت بنفَس ضيق

- إيه الدخان اللي مغرق الدنيا ده؟! مش ممكن يكون من سجارتين بس... هو إنتو كنتوا بتحرقوا حاجة ولا ده حشيش؟

ضحك سعيد وهو يطفئ سيجارته في الطفاية

- حشيش؟! صباح الفل يا هالة... تعالي شوفي دكتور يوسف بيقول إيه من الصبح، والله دماغه شكلها دماغ حشيش فعلاً.

فتحت هالة أقرب شباك ليتسرّب منه بعض الدخان وقالت

- بيقول إيه تاني؟

جرّ سعيد كرسياً نحوها بلُطف

- بيحكيلي عن أرواح بني آدمين وجن وعفاريت، والمشكلة إنه مصدق نفسه جدًا.

جلست هالة وهي تبتسم

- يا سيدي ده العفريت مذكور في القرآن... أنا كمان مؤمنة بوجودهم.

- أيوه يا سِتّي، العفريت مذكور في القرآن وسورة كاملة اسمها "الجن"، بس أنا مش بتكلم عن ده... كلام يوسف حاجة تانية خالص.

ثم التفت نحو يوسف وضربه على كتفه وهو يقول

- ما تنطق يا عم، خلّي هالة تسمع بنفسها اللي بتحكيه من الصبح. والله هتتفاجئ.

رمَت هالة حقيبتها وبعض الكراسات على الطاولة وقالت باهتمام

- بتقول إيه يا دكتور؟ أنا بحب المواضيع دي جدًا.

أشعل يوسف سيجارة جديدة من بقايا القديمة. سحب منها نفساً طويلاً قبل أن يضع أختها في الطفاية كأنه يدفنها، وقال وهو يزفر الدخان من فمه

- هو أنا لسه قلت حاجة؟!

ثم رفع رأسه ببطء. كانت ملامحه ساكنة أكثر من اللازم، وابتسامته باردة لا تمتّ لوجهه المعروف بصلة.

- كنت بكلم سعيد عن الأرواح وأنواعها... بحاول أوجد رابط بين اللي قريته واللي درسته.

كان يتحدث بثقة لم يعرفوها عنه من قبل، وكأن الكلمات تلقى على لسانه من مكان بعيد، كل جملة تخرج كأنها محفوظة من قديم الزمن، محفوظة في ذاكرةٍ ليست ذاكرته، قال أخيرا

- في قاعدة بتقول إن بعض الأفكار لا تظل أفكارًا طويلاً، لابد لها من تجسيد.

سعيد علّق بسخرية

- يعني أفكارك دي ممكن تتجسد؟ ... تتحول لجن؟

هالة وهي تحرك الهواء بيديها لطرد الدخان وتفتح شباكًا آخر

- ايه هي فكرتك عن الأرواح وأنواعها؟ ويعني إيه أنواع الأرواح؟

نقر يوسف بأصابعه على الطاولة في توتر وقال

- لو عايزين تسمعوا، محدش يقاطعني. أخلص كلامي، وبعدين نتناقش براحتنا.

ابتسمت هالة وعقدت ذراعيها

- تمام يا "دكتور جو"، كلي آذان صاغية.
- الله عليك يا يوسف! عرفت تسكتها إزاي؟ ده انتصار لوحده.

رمقته هالة بنظرة حادة وقالت

- بلاش هزار يا سعيد، يوسف هيروح بيته، لكن انت معايا، ومفيش حد هينقذك مني.
- بهزر يا روحي، أنا ماليش غيرك. يلا يا يوسف، قول إحنا سمعينك.

رفع يوسف إصبعه إلى فمه إشارة للصمت، ثم أشار نحو الباب هامسًا

- هس... عم صلاح داخل دلوقتي بالقهوة.

وبعد لحظات، دخل الساعي يحمل صينية عليها أكواب الشاي والقهوة.

قال يوسف مبتسمًا

الله عليك يا عم صلاح، جِيت في وقتك.

بعد أن خرج الساعي، سألَت هالة باستغراب

- عرفت إزاي إنه جاي؟

رد سعيد متحمساً

- أكيد سمع صوته، ده صلاح ماشي عامل فرح في الطرقة، قولنا بقى يا يوسف عن موضوع الأرواح ده.

ارتشف يوسف رشفة من قهوته وقال

- أنا مقتنع إن فيه أرواح، كيانات ليها وجود منفصل عن الأجساد.
- قصدك كائنات زي الجن؟
- لأ، مش بالضبط، قصدي كيانات تانية، ممكن تتحد مع الجن أو مع البشر.
- مش فاهمة!

تنهد يوسف ويده ترفع فنجانه، كان يراقب يده وهي تتحرك في الهواء، بإعجاب غامض. كأن الجسد يستجيب قبل أن يفكر هو بما يفعل.

- يعني الروح ممكن تكون روح إنسان أو جني، سواء كانوا أحياء أو أموات. وفيه أرواح للحيوانات كمان... ربنا ذكرها في قصص كتير، زي هدهد سليمان وحوت يونس وناقة صالح.
- تمام، كمل.
- كمان فيه أرواح لخلقٍ تاني، ما نعرفهمش، زي ما ربنا قال ويخلق ما لا تعلمون.
- الله عليك يا شيخ يوسف، كمل يا مولانا.

وقف يوسف عند الشباك يحرك يده في الهواء

- الأرواح دي مش مجرد طيف شبحي زي ما بيصوره في أفلام الرعب...لا دي شيء مادي ومحسوس، ليه تفكير وإرادة ورغبات، ليه حياة كاملة بيعيشها، كمان ساعات بيتواصل مع البشر،

بس مش كل الناس تقدرعلى التواصل ده.

لازم يكون عندك قدرة خاصة، موهبة عقلية نادرة.

زي ما في ناس بتسمع ترددات صوت مش بيسمعها حد،
وناس بتشوف ألوان أكتر من الطبيعي،
وفيه اللي بيحس بالأحداث قبل ما تحصل... زي الإدراك المسبق.

- تقصد الحاسة السادسة؟
- لأ... حاجة غير كده... الإدراك المسبق هو إنك تحس بالحاجة قبل ما تحصل. وتحس إنك شفتها قبل كده. كأن الزمن بيتكرر

قالت هالة باهتمام

- فعلاً، حصلت معايا كذا مرة.
- بالضبط، بتحصل مع معظم الناس،
- موضوع عجيب وملوش تفسير علمي

كمان في ظاهرة عكسها تمامًا، اسمها الإدراك الاسترجاعي....

- بالراحة كده يا دكتور ... يعني ايه؟
- يعني إنك تعرفي ماضي مش بتاعك. ماضي ما عشتيهوش، ولا سمعتي عنه يا هالة، ولا قريتيه.

بتحسي بيه كأنك كنتي هناك.
كان فيه مثال على كده، طفل قال إنه كان عايش قبل كده، وليه بيت وأسرة وأحفاد، ولما بحثوا في كلامه، طلع كله حقيقي.

صمَت لحظة، وكأن عقله ينصت لشيءٍ لا يسمعه أحد غيره.

ثم تمتم في نفسه دون أن يدري أن أحدهم يسمعه

- مين قال إن الماضي ملك أصحابه؟ مجرد وعي كان يسكن جسدًا... مؤقتًا.

نظرت إليه هالة باستغراب

- صوتك غريب يا يوسف... كأنك شخص تاني النهارده.

ابتسم وقال بلا وعي

- يمكن أكون فعلاً شخص تاني... بس محدش واخد باله.

ضحك سعيد محاولاً كسر الصمت:

- يا نهار أبيض، هو في إيه يا جماعة؟ دكتور يوسف بيتحوّل ولا إيه؟

لكن يوسف لم يضحك.

رفع نظره إلى الشباك، قال بهدوءٍ غريبٍ وكأنه يحدّث أحدًا لا يراه

- في الحقيقة... كلنا بنتحوّل.

أخذ نفسًا عميقًا وقال بنبرة هادئة

- في ناس بتقدر تستوعب التحول ده، وفي ناس عقلها ما بيستحملش... بنسميهم مجاذيب، أو مجانين.

ابتسمت هالة وهي تلمّ أغراضها

- رغم إني مش فاهمة كل حاجة، بس كلامك مش جديد عليا، سمعت كذا حد بيقول نفس الأفكار قبل كده. العجيب هو حماسك. واضح إنك كنت مستني حد يسمعك.
- فعلاً يا هالة، من أول اليوم وهو بيتكلم في الحاجات دي بحماس غريب، كأنه مذيع توك شو.

رنّ جرس المدرسة بصوت متقطع، فنهض يوسف وهو يمسك بحقيبته

- تمام... باين عليّ لقيت جمهور أخيرًا.

قالت هالة وهي تبتسم

- لا، مش جمهور، دي مناظرة، وأنا طرف فيها.

ضحك يوسف وهو يخطو نحو الباب

- مناظرة إيه بس، دي دردشة. وبعدين خلينا نكمّلها يوم تاني.
- يوم تاني إزاي؟ لازم نكمل النهارده. نروح كافيه بعد المدرسة.
- ما انت فاضي يا سعيد، وبعدين مش معقول هالة تيجي كافيه معانا.

قال سعيد وهو يضحك

- هالة معايا النهارده، كنا ناويين نروح سيما. بس والله كلامك أحسن من أي فيلم.
- يا سلام! قررت لوحدك كده؟ إحنا هنروح السيما وإلا هيبقى زعل بجد.

همّ يوسف بالمغادرة، وقف يلملم أوراقه، وقال بمرح

- خليكوا في السيما أحسن... أنا عندي الحصة الأخيرة.

ثم التقط فنجانه، ارتشف رشفةً طويلة، وخرج ببطءٍ من الغرفة، حين خرج كان الدخان يتبعه كظله.

لم يلحظ أحد أن يوسف... لم يكن هناك أصلا.

— ✦ —

زيارة مجدي

الزمان 20 ديسمبر 2021
المكان شقة مجدي

كان صوت التلفاز يملأ أرجاء الشقة الهادئة، والمذيعة تتحدث بحماسٍ مصطنع

أهلاً بكم أعزائي المشاهدين في حلقة جديدة من برنامجكم نهار جديد. وحلقة النهارده زي ما عودناكم مختلفة... النهارده هنتكلم عن مرض جديد انتشر في مجتمعنا...

حين رنّ هاتف مجدي، قاطع المذيعة في منتصف جملتها. عندما أمسك الريموت، وضغط زر كتم الصوت، ردّ على الهاتف

- ألو.

جاءه صوت ندى ضاحكًا ودافئًا

- أيوه يا سيدي، أجازة بقى وقاعد في البيت براحتك.
- ندى! إزيك؟ أخبارك إيه إنتِ ويوسف؟ والله كنت هكلمك حالًا، القلوب عند بعضها.
- يوسف كان لسه بيسألني عليك، وبيقول لي مجبتش الولاد ليه؟

ضحك مجدي بخفة

- ما انتي عارفة، الدراسة وجع دماغ... نزولهم معايا مشكلة.
- حيلك حيلك يا مجدي، مش هينفع الكلام في التليفون كتير.
- طيب طمّنيني، عاملة إيه؟
- الحمد لله تمام، وانت طبعًا من ساعة ما وصلت البيت ما نزلتش، صح؟
- أنزل أروح فين؟ لسه صاحي من النوم. وبعدين الخروج من غير العيال ملهوش طعم. أنا نازل أشوفكم أنت ويوسف، والله واحشني.

- بقولك إيه، تيجوا تتغدوا عندي؟

- لأ، أنا غايبة النهارده مخصوص من الشغل علشان أعملك الأكلة اللي بتحبها.
- أوعي تعملي حاجة! استنيني، أنا اللي جاي لك حالًا. نعمل مشوار بالعربية بتاعتك ونجيب أكل جاهز على حسابي، علشان يوسف يبطل يقولي يا أبو كرش.

ضحكت ندى بصوتٍ عالٍ

- تصدق؟ والله لسه قايلها الصبح قبل ما ينزل، وكنت هاتخانق معاه وقلت له إني هاقولك.
- يا بنتي أنا حافظ يوسف...أربع سنين معايا في الكلية، أعرفه بيفكر إزاي وهيقول إيه قبل ما ينطق.

ضحك مجدي وبجدية قال

- قوليلي بقى هو عامل معاكي إيه؟

ندى بصوتٍ أكثر هدوءًا قالت كأنها تتردد، كأنها تخاف أن تُخرج الكلمات للهواء فيتحقق ما تخشاه.

- والله هو كويس معظم الوقت... بس ساعات بيبقى غريب كده. بيقعد ساكت كأنه مش هنا، وساعات أنده له ما يردش. يوم بيشرب سجاير كتير جدًا، ويوم ممكن ما يولعش واحدة.
- عادي يا ندى، الواحد موده بيتقلب. إحنا مش آلات ماشية ببرنامج واحد.
- أنا ما قلتش حاجة، إنت اللي بتسأل.
- خلاص، يلا بقى، انزلي قابليني بالعربية بتاعتك. نخلص المشوار، وانا هعزمكوا على كباب وكفتة من بتوع زمان، وعلى حسابي كمان.
- تمام يا سيدي، بس يوسف لو عرف إن أنت اللي هتجيب الغدا هيزعل، وبعدين ده انهارده عيد ميلاده.

- لأ طالما عيد ميلاده، نرجع نعمل له مفاجأة... ومتخافيش مش هيزعل، هيبقى يوم جميل وهناكل أكل حلو مع بعض.

أغلق الهاتف، أعاد صوت المذيعة على الشاشة، كانت لا تزال تتحدث عن أمراض المجتمع.

بينما كان مجدي يفكر في شيءٍ آخر تمامًا... في يوسف، وفي تلك الغرابة التي لم تفهمها ندى.

— ✦ —

كانت الشمس تميل إلى الغروب حين توقفت سيارة ندى أمام العمارة. نزلت وهي تحمل بعض الأكياس، وبجوارها مجدي، يتأفف من ثقل ما بيده.

قالت وهي تفتح باب الشقة

- ادخل يا مجدي، بيتك ومطرحك يا حبيبي.

ردّ وهو يلهث

- هو مقلش هايرجع إمتى؟ دنا رنّيت عليه يمكن عشر مرات.

ضحكت ندى بخفّة وهي تضع المفاتيح على المنضدة

- آه، وأنا واخدة بالي، كنتَ قاعد جنبي في العربية وبترن من أول الطريق. بس معلش، هو بيخلص على الساعة خمسة... النهارده في الشركة مع د. فؤاد، مش في المدرسة.

- مش فاهم، إيه لزمتها الشغلانة دي؟ كفاية عليه المدرسة.

- يا سيدي، البيت محتاج مصاريف... وأنت عارف حياتنا كلها أقساط.

- ربنا يكون في عونه بقى.

دخلت ندى غرفة النوم وهي تقول

- معلش، حط الحاجات دي في المطبخ، وأنا هاغيّر هدومي وراجعة.

رفع مجدي الحقيبة بصعوبة وهو يقول من خلفها

- منا قولتله يسيب الشركة، أجيبله شغل برّه... بس هو غاوي فقر، ابن الـ...

توقف فجأة عن الكلام، وصاح من المطبخ

- بقوليك إيه يا ندى... مين اللي مبهدل الدنيا كده؟ كل الأدراج مفتوحة!

خرجت ندى مسرعة من الغرفة، وبيدها سكين.

- مش عارفة! وكمان لقيت السكينة دي في أوضة النوم!
- يعني إيه؟ مشفتيش المطبخ كده الصبح؟
- لأ والله... أنا نزلت بعد ما كلمتك، وماخدتش بالي من حاجة. وبعدين يوسف نزل قبلي عشان يلحق الشغل.

قال مجدي بجدية وهو يفتش بعينيه المكان

- طب دوري كويس، يمكن حرامي دخل الشقة.

جرت ندى إلى غرفة النوم، دقيقة واحدة ثم عادت تتنفس بسرعة

- مفيش حاجة ناقصة... كل حاجة في مكانها!

حاول مجدي تهدئتها ولكنه هو نفسه كان يشعر وكأن شيئًا في البيت يراقب بصمت، يبتسم في الظل.

- خلاص، يبقى أكيد يوسف اللي عمل كده قبل ما يخرج. اهدي، ولما يرجع نسأله.

أمسكت ندى هاتفها واتصلت بيوسف، هذه المرة أجاب.

- يوسف! مش بترد ليه عليا؟ وكمان مجدي رنّ عليك كتير، في إيه؟ قلقتني.
- لا مفيش حاجة... قاعد مع واحد صاحبي، والموبايل كان صامت. في حاجة حصلت؟
- لأ، مجدي عندنا وعايز يشوفك... ياريت ما تتأخرش.

- حبيبتي، تمام... أنا جاي حالًا. عايزين حاجة من برّه؟
- لأ... تعالى أنت بسرعة بس.
- سلام

أغلقت الخط، وبقي صدى صوتها يتردد في الشقة التي غمرها صمتٌ ثقيل، كأن الهواء نفسه يترقّب شيئًا قادمًا.

— ✦ —

وأخيرًا جاء الليل

الزمان 20 ديسمبر 2021 نفس اليوم ليلًا
المكان شقة يوسف

حلّ المساء ببطء، وغطّت الأنوار الهادئة جدران الشقة، التي بدت ساكنة كأنها تحبس أنفاسها. كان يوسف يجلس في غرفة المعيشة مع مجدي، بينما انشغلت ندى في المطبخ.

صوت الأواني يعلو من بعيد، يمتزج بصوت التلفاز المنخفض.

اقترب يوسف قليلًا من مجدي، وصوته يحمل تردّدًا واضحًا

- مجدي... ينفع أقولك سرّ وتوعدني يفضل ما بينا؟

ابتسم مجدي نصف ابتسامة

- طبعًا يا ابني، هو إحنا لينا غير بعض.

ظلّ يوسف صامتًا للحظة، ينظر في كوب الشاي الفارغ أمامه، ثم رفع رأسه وقال بنبرة حائرة

- بس ما تضحكش... ممكن تقول عليا مجنون.

ضحك مجدي بخفة

- أنا لسه ما قولتش حاجة... والمجانين أنواع كتير ما أنت عارف.

رفع يوسف عينيه بثباتٍ هذه المرّة

- أنا بتكلم جدّ. الموضوع بجد يا مجدي، مش هزار.

مال مجدي للأمام

- موضوع إيه؟ مش فاهم.

تنفس يوسف بعمق، ثم قالها دفعة واحدة

- سيف رجع تاني ومش عايز يمشي....
- إيه؟ يا يوسف سيف مات من زمان

تغير صوته ليحمل نبرة سخرية

- أن مش قصدي اللي مات....

مع أنتهاء آخر حرف، أرتعش ضوء المصباح بصوت أزيز مسموع.

تجمّد مجدي في مكانه... عينيه تتّسعان ثم ضحك في محاولة لتخفيف وقع الكلام

- يوسف... إنت بطّلت تاخد العلاج؟

انتفض يوسف بعصبية

- علاج إيه؟ أنا مش تعبان يا مجدي!
- طيب، طيب... اهدا. الموضوع ده مش جديد، انت قولت الكلام ده قبل كده. فاكر أول ما فقت من الغيبوبة؟ كنت بتقول نفس الكلام، وبعدها نسيت... وبقيت كويس،

هزّ يوسف رأسه ببطء وهو يهمس

- مجدي... أنا بنام واصحى، **ألاقي** نفسي عامل **حاجات** وأنا مش فاكر إني عملتها .**اتكلمت** مع حد، أو خرجت، بقيت بغيب كتير عن الوعي، وسعات مابقدرش أسيطر عليها.
- تسيطر على إيه؟ مين دي؟

رفع يوسف عينيه إليه، لمعت دمعة صغيرة عند طرف الجفن، وقال بصوتٍ يملاؤه الخوف

- روحه ... روح سيف يا مجدي.
- إيه بس اللي رجعك تتكلم تاني في الموضوع ده يا يوسف؟

ارتعش النور في الشقة كلها عدة مرات ثم عاد ليستقر ساد الصمت للحظة، كأن الزمن نفسه توقّف.

من المطبخ، جاء صوت غليان الماء، وصوت الملاعق وهي ترتطم بالأكواب.
جلس مجدي مصدوما، لا يعرف إن كان أمام مريضٍ أم أمام سرٍّ أكبر من أن يُقال.
رفع يوسف نظره إلى الفراغ أمامه، كأنه يحدّق في شيء لا يراه أحد سواه.
همس وهو يبتسم ابتسامةً غريبة، نصفها حزن ونصفها رضا، قال بصوت خافت، لكنه كان له صدى وكأنهم صوتان في نفس الوقت
- من يوم ما سيف غرق وروحه عمرها ما سابتني...
انطفأ ضوء المطبخ فجأة، وارتفع صوت ندى في الظلام.
تبادل يوسف ومجدي النظرات، لكن أحدًا منهما لم يتحرك.
كانت الليلة قد بدأت... ولن تنتهي كما بدأت.

— ✦ —

حنين للماضي

المكان بيت العائلة (بيت عبد الله زهران)
الزمان ديسمبر 2015 - قبل الحادث بأيام

كلا منا له مكان يحبه، يتعلق به نفسيا، يحن له، ويتمنى دائما الرجوع اليه، ربما لذكريات الطفولة، أوللحظات سعيدة عاشها، لكن السر وراء تعلقي بهذا البيت هي أمي، ورائحة طفولتي
جرس الباب يرن، صوت عالي رنات كتير متقطعة، صوت أمي من الداخل

- أيوه حاضر ياللي على الباب. يوه هي الدنيا طارت؟

يرد عليها بجرس طويل تاني وهي بتفتح الباب

- سيف حبيبي لسه والله كنا فـي سيرتك الصبح دخل وهو يقبل يديها
- زيك يا ست الكل؟ عاملة إيه؟ وحشاني. هو فين بابا والواد خالد؟ سايبينك لوحدك ليه؟
- أبوك راح مشاور يا سيدي وهيرجع على الغدا. وخالد من يوم ما خد الأجازة ما بيقعدش في البيت يا مع اصحابه يا بيروح الجيم
- يا ماما سيبيه برحته دي أجازة، وكويس انه بيلعب رياضة

تضيق عيناها وهي تنظر في وجهة نظرة فاحصة

- تعالى هنا مالك وشك مخطوف ليه، احكيلي أوعى تكون حاجة مضيقاك يا حبيبي
- مفيش والله، وبعدين طبيخك واحشني قوي وجاي اتغدى معاكي النهارد

- لا دنتا باين عليك تعبان، ولا تكون زعلان مع البت ندى قولي وانا اشدلك ودنها
- لا والله يا ماما، ندى مش مزعلاني، دي طيبة جدا، لما تعرفيها أكتر هتحبيها، ... بس مانمتش كويس
- مش كنت قعدت معنا في بيت ابوك، لحد ما تتجوز، بدل السكن لوحدك ده.
- يا ماما ما قلت لك، علشان أبقى قريب من الشغل، وكلها كام شهر ونتجوز. وبعدين ده أنا كل يوم والتاني عندكم.
- كل يوم؟ **إده أنت** بقالك يجي 3 أسابيع **ما بتجيش** .وكل **ما** أكلمك تقولي جاي بكرة، **وبرضه ما بتجيش** .بس بقى خليني ساكتة علشان أنا وأبوك زعلانين منك.

ينحني ليقبل رأسها ويدها

- لا مقدرش، كله الا زعلك يا ست الكل
- خلاص انت تدخل تريح شوية ولما أخلص الاكل هاصحيك يكون أبوك جه.

دخل ينام وبعد أقل من ساعة دخل خالد مسرعاً وأغلق باب الشقة خلفه

- ماما هو سيف كان هنا النهارده؟

وهي خارجه من المطبخ

- حمد الله عالسلامة ياخالد مش تقول سلامو عليكو الأول
- السلام عليكم يا ست الكل، أصل عم أمين بيقول ان شاف سيف اخويا داخل الشارع، رنيت عليه تليفونه مقفول
- ايوه يا سيدي جه

- مش كان يقول انه جاي مكنتش نزلت دنا عايز اشوفه ضروري، موضوع مهم

سيف يخرج من حجرة خالد

- أنا قلت أعملها لك مفاجأة وأطب عليك وأقفشك متلبس. لقيتك هربان يا أستاذ.

خالد يحتضن سيف

- سيف حبيبي واحشني والله بس إيه ده انت كنت نايم.
- ملحقتش أنعس.
- المهم كنت عايز منك مساعدة.
- عايز ايه ياض قول.
- عايز اشترك في نادي، العب كورة.
- وانا اللي كنت جاي اسألك عملت ايه في الامتحانات.
- والله عملت اللي عليا بس الكورة أهم.
- ماهو عمل اللي عليه أهوه يا ماما عايزين منه ايه تاني

سناء تخرج من المطبخ وتستعد لتحضر الطعام على السفرة، قام خالد يساعد أمه في وضع الاطباق على السفرة

- وأنت يا ست الكل كلميه تاني خليه يوافق
- لا بالنسبة لأبوك الموضوع ده منتهي ماتتكلمش فيه تاني.
- طيب هو فين بابا؟ مش هايتغدى معانا؟
- أبوك أتصل وقال نتغدا أحنا علشان هيأخر شوية

خالد فقد الأمل في الحديث مع أمه فعاد لسيف

- ورحمة يوسف تستنى تكلم بابا وتقنعه
- لأ ده حلفني بالغالي، إذا كان كده خلاص شوف احسن نادي وانا من بكره اعملك اشتراك فيه

- حبيبي يا سيف،

ما إن بدأ الجميع في تناول الطعام حتى عاود خالد الحديث وكأنه تذكر شيء

- صحيح يا ماما هو مش 12 سنه فرق ده كتير اوي بينا، ايه هو بابا مكانش فاضي في الفترة دي كلها

سناء وهي بتضرب بالمعلقة على الطبق

- أتكلم بأدب يا واد يا خالد.. ، أنا اللي مكنتش عايزة أخلف تاني وقلت كفاية سيف ويوسف، علشان نعرف نربيهم ونعلمهم كويس.. ماهو التوائم تربيتهم صعبة. بس عبدالله بقى قالي لازم نجيب أخوات للعيال،... كان نفسه نجيب بنتين تؤام، علشان كان بيقول البنات رزقها واسع، بس نعمل ايه بقى جيت انت، حكمة ربنا

سيف ضاحكا عندما تذكر أيام الطفولة

- فاكره يا ماما حتى انتي مكنتيش بتعرفينا من بعض

ضحكت وهي تتذكر وتوجهت بالحديث لخالد

- آه والله يا خالد. دنا امهم مكنتش بعرف افرق بينهم. لأ وكانوا أشقية وبيعملوا فيا كل فصل والتاني ومدوخين الجيران والمدرسين، ... وكل يوم بحكاية، محدش كان عارف يفرقهم من بعض غير عبدالله ابوك

سيف وكأنه تذكر شيء ما، وهو يضحك

- بصراحة يا ماما ولا هو كمان.. هههههه، هو بابا كان شديد يا خالد واحنا كنا بنخاف منه قوي، فكان بيقولي انت يا ولد يا سيف وهو باصصلي. فامكنتش اعرف أقوله انا مش سيف انا يوسف فكنت باقول من خوفي نعم يا بابا، ونفس الكلام مع سيف

ضحك خالد قبل أن يقول

- قصدك العكس كان بيقولك يا يوسف علشان انت سيف

سيف وهو يحاول أن يداري دموعه

- صح يا رخم

— ✦ —

ليلة الحادث

المكان بيت العائلة (بيت عبد الله زهران)
الزمان 20 ديسمبر2015 - مساء

ليلة من ليالي ديسمبر الباردة، كان سيف مختلفًا في تلك الليلة والوقت قد اقترب من منتصف الليل، والجميع نائم، عدا سيف. الذي جلس بيدين مرتعشتين، يدون كلمات في دفتره القديم، وكنت أنا أراقب سكون الليل من الشرفة. ما أن دخلت حتى أغلق سيف الدفتر فقلت له

- إيه يا سيف، مالك؟ مش ناوي تنام؟

لم يرد، كان ممسكًا بمفاتيح السيارة في يده، يدوّرها بين أصابعه، كطفل ينتظر العقاب.

وقال بهدوء غريب

- مش قادر أنام، جاهز نخرج بالعربية شوية.

قلت له وأنا أحاول التخفيف من حدّة صوته

- طيب نخرج الصبح، عشان بابا ...

ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة، نصفها تحد ونصفها وجع، وقال

- هو لازم يعرف كل حاجة؟ خليها سر بنا.
ماتشغلش بالك، هات بس الرخصة والبطاقة

أشرت إلى الرف خلفه

- المحفظة كلها إهيه خليها في جيبك بس ترجعها زي ما كانت.

سيف فتح المحفظة، تأكد من الرخصة والبطاقة وقال

- حلوة ياض يا يوسف الرخصة دي، كويس أنك عملتها.

كأن شيئاً في نبرته **أيقظ فيَّ شعوراً بالخوف** ...ليس خوفاً منه، بل خوفاً رأيته في داخله.

من سكوته الطويل، من نظرته الفارغة، من صمته، الذي يحمل الكثير من الكلام.

نزلنا، الشارع شبه المظلم إلا من عمود إنارة واحد يتهز مع الريح.

ركب في الكرسي بجانب السائق. ظل صامتاً، ثم نظر إليَّ وقال

- أنت اللي هاتسوق يا يوسف، وأنا هاسوق وأحنا رجعين.
- تمام مفيش مشكلة

كنا دائمًا نخرج سويا، لكن تلك المرة كان هناك شيء مختلف.

الشارع هادي، والهواء به رائحة مطر خفيف.

ركبت السيارة، كان قد ادار المحرك.

جلس جواري في صمت، ينظر للهاتف دون تركيز. فسألته

- هاه عايز تروح على فين يا سيف؟
- امشِي كده شوية، على الكورنيش.

صوته كان يحمل الكثير من الوجع.

تحركت ببطء، الشارع فارغ، والكورنيش عن يسارنا، قلت له وأنا أنظر له

- مالك يا سيف؟

لمعت عيناه فجأة، وكأنه أقتنع بأنه قد أتخذ القرار الصواب وقال

- فاكر وإحنا صغيرين لما كنا بنجري في الشارع بتعنا نتسابق لحد آخره ونرجع؟ أنت جاهز دلوقتي؟

فهمته أخيرا، وابتسمت بجانب وجهي وقلت

- أنا جاهز من زمان

مسكت المقود بكلتا يدي. وبكل قوة ضغط على الوقود، انطلقت السيارة تنهب الطريق بأقصى سرعة.

لحظات، وكان هناك نور قوي جدًا، قادم من الأمام، اكتشفت متأخرا أنني كنت أقود السيارة، لكن في الاتجاه المعاكس.
حاولت الضغط على الفرامل، لكن الكاوتش صرخ،
السيارة دارت نصف دورة، وصوت اصطدام قوي، وزجاج يتكسر،
كل شيء حدث في لحظة. شعرت بجسدي يخترق زجاج السيارة ويطفو في الهواء... وأخيرا، رائحة الهواء البارد.
اختلط طعم الدم بطعم المعدن في حلقي، ثم نور أبيض يغلف المكان من حولي. لم يسقط جسدي على **الإسفلت**، بل تكثف الهواء حولي، صار لزجاً كماء البحر .**أحسست أني أسقط في البحر، لكنني لم أشعر بالغرق كأول مرة.**

لم يكن بحراً غاضبا تلك الليلة، بل كان هادئا على نحو مريب.

الهدوء الذي يسبق... ليست عاصفة، بل شيء لا يمكن للعقل أن يصفه، ولا للوعي أن يستوعبه. حين سقط جسدي تلك المرة، لم أشعر بالبرد، ولا بالاختناق.

شعرت فقط بأن شيئًا يُسحب من صدري... كأن أحدهم ينتزع الهواء من رئتي، لا ليستبدله بالألم، بل بالفراغ.

رأيت سيف يمد يده نحوي.

كان يبتسم، وعلى ملامحه نظرة لم أفهمها، نظرة كأنها خرجت من مكان أعمق من العين. حاولت أن أصرخ باسمه، لكن الصوت لم يخرج.

حتى الماء لم يتحرك حولي.

وفجأة... سمعت صوتا يصيح ليس من الخارج، بل من الداخل.

من سيعيش... سيكون يوسف
لم يكن صوت سيف، ولا صوتي. وكأن البحر نفسه يتكلم. قلت له

أنا اللي خسرت ... سيبني أغرق .

لكن يده لم تترك يدي. ابتسم وقال

ده الحكم... الخسران ينفذ الحكم.

ثم غاب وجهه، وغابت ملامحي أنا أيضًا.

لم أعد أعرف أيُّنا الذي يغرق، وأيُّنا الذي ينجو.
ثم تحول الماء لمرآة مكسورة، وجهي ووجهه ينعكسان فيها...

كنت أرى نفسي فيه، وأرى إنعكاسي يختفي شيئًا فشيئا.

وفي اللحظة التي انطفأ فيها آخر خيط من الضوء، أدركت أن الغرق لم يكن في البحر، بل في نفسي، لم أعد أعرف من منا الذي نجا،
فقط أدركت أن النجاة هي الوجه الآخر للغرق

— ✦ —

من منّا الغريب

المكان شقة يوسف
الزمان 20 ديسمبر 2021

لم تكن السكين وحدها التي اخترقت جسده، بل أنا أيضًا.
مررت من خلاله كأن جسده ستارة من ماءٍ دافئ، له قوامٌ وحرارة، لكنه بلا مادّة.
تجمدت في مكاني، لا أستطيع التصديق.
لو كنت نائمًا لقلت إنّه كابوس، لكني كنت مستيقظًا تمامًا.
نتيجة اندفاعي، سقطت أرضًا على بعد خطواتٍ منه، والسكين انزلقت بعيدًا.
شعري انتصب من الرعب، حاولت الصراخ
لكن صوتي لم يخرج، كأن أحدهم خنق أنفاسي.
كأن صوتي ارتدّ في رأسي، كأنه لم يجد طريقه إلى الهواء،
لم أشعر بألمٍ من سقوطي، فقط رأيت الفوطة تنزلق عن رأسه،
نظر حوله في دهشةٍ وكأنه يبحث عن شيءٍ أضاعه،
ثم رفع عينيه نحوي ونظر نظرةً جمّدت الدم في عروقي.
ابتسم، مرّ بجانبي، التقط السكين من الأرض، ومشى بهدوءٍ كأنني هواء.
صرخت ثانيةً وأنا أحاول أن أوقفه

- إنت مين يا ابن الـ... وإزاي دخلت هنا؟!

لكنه لم يسمعني، لم يرني أصلًا.
بصعوبةٍ نهضت، جسدي ثقيل كأن عضلاتي لا تطيعني.
راقبته وهو يتصرّف بثقةٍ غريبة،
فتح النور، وضع السكين على الكومودينو،
ثم اتجه نحو الدولاب يفتح الأدراج ويلقي بالملابس على السرير.
أخرج بدلةً أنيقة، ارتداها في هدوءٍ ممل،

ثم قال بصوتٍ أعرفه جيدًا

- ندى، أصحي يا حبيبتي.

ردّت عليه وهي تتقلب بتكاسل

- يعني لازم الدوشة دي كل يوم؟ سبني نايمة شوية.

قال وهو يفتّش في الأدراج

- فوقي يا ندى، ردي عليا.
- عايز إيه؟ حرام عليك عايز أنام.
- مش هتقومي؟ الساعة بقت تمانية.
- لأ، مش رايحة الشغل. هنام شوية. ما أنت عارف إن مجدي وصل امبارح واتصل بيا، رُحت جِبته من المطار.
  هييجي يتغدى معانا النهارده، ولازم أعمل الغدا.

ضحك وهو يبحث عن شيءٍ على الكومودينو

- أه صحيح، حمد الله على سلامته. واحشني مجدي أبو كرش! هو جايب العيال معاه؟

استدارت ندى وقالت بانزعاج

- متقولش على أخويا كده!

ابتسم وهو يضع نظارته

- أصله مفكّرش يرن عليّ أنا، ده احنا أصحاب عمر!

وبيرن عليكي إنتِ علشان يضمن الغدا اللي بيحبه.

تلاقيه جاي مصر مخصوص علشان ياكل. هههه.

تثاءبت ندى وقالت

- أصحاب إيه بس، ده أخويا! وبعدين المفروض تشكر فيه قدامي،

علشان وافق على جوازك مني.

- أنا قعدت سنين أعزّمه غدا وعشا لحد ما وافق نتجوز.
- قصدك إنك دفعت له المهر بتاعي أكل! هاقوله على فكرة!
- لا خلاص، مجدي ده حبيبي. وبعدين بهزر معاكي يا روحي.
- صحيح هو فين الموبايل بتاعي؟ قلبت عليه الدنيا ومش لاقيه.

مدّت ندى يدها من تحت الوسادة وهي تغمض عينيها

- خد، أهو.

أخذ الهاتف منها وقال باستغراب

- مالك، مخبّياه ليه كده؟
- لأ، ده خضّني في الأول. سمعت صوته، كان المنبّه بيرن، وبعدين لما وقع على الأرض...

قاطَعها بدهشة

- إيه اللي وقعه على الأرض؟
- مش عارفة، بس قُمت مخضوضة.

قلّدها ساخرًا

- يا سلام؟ وده اللي يخضّ؟

جلست ندى على السرير تتذكر شيئًا

- لأ، مش الموبايل اللي خوفني... ده انت.
- عندك حق، شكلي يخض فعلاً.
- لأ بجد، أفتكر إني فتحت عنيا، واتهيألي إنك كنت لسه قاعد جنبي على السرير، بس خيال كده... مش واضح قوي.

اقترب منها وقبّل رأسها بلطف

- مافيش حاجة تخوّف يا روحي، أكيد حلم.

قالت وهي تمسك بيده

- مينفعش أخاف وأنت معايا.

وقبل أن يخرج، سألها بابتسامةٍ رقيقة

- أنا رايح الشركة انهارده، عايزة حاجة؟

تثاءبت وهي تستلقي من جديد

- آه... إطفي النور.

وقف أمامي للحظة، كنتُ أراه بوضوحٍ، كأنني أنظر في مرآةٍ تعكسني بكل تفاصيل وجهي وصوتي.

حاولت أن أصرخ، أن أمسكه، أن أوقفه بأي شكل،

لكن ابتسامته كانت الختام.

أطفأ النور وخرج، وتركني في العتمة... أتساءل... من منّا الغريب؟

— ✦ —

خبر غير سار

مستشفى (النيل العامة)

الزمان 21 ديسمبر2015 فجرا

عند الباب الخارجي للمستشفى، وقف عبد الله زهران لحظات مع حارس الأمن. دخل بعدها مسرعاً نحو مكتب الاستقبال، بصوت لاهث

- السلام عليكم، في حد كلمني، قال.. ابني جه في حادثة عربية

تنهد وبلع ريقه قبل أن يكمل كلامه مع موظفة الاستقبال

- هو فين؟
- أسمه أيه يا فندم؟
- اسمه سيف... سيف عبد الله زهران

بعد أن فحصت الأسماء في الدفتر بسرعة

- لا يا فندم، مفايش حد أسمه سيف جه في حوادث
- الحمدلله أنا قلبي كان هايقف يا بنتي والله.

وأخرج الهاتف ورفعه وهو يبحث عن الرقم الذي قام بإبلاغه وعرضه لها

- مش ده رقم المستشفى، منه لله اللي عمل فيا الفصل ده.

نظرت إلى الرقم على شاشة الهاتف، وظهر على وجهها الضيق دون أن تجيب، ثم أعادت النظر في الدفتر

- أسفه يا فندم، في واحد جه فعلاً في حادثة عربية، بس أسمه يوسف، يوسف عبد الله محمد زهرا..
- يوسف إزاي يعني؟ أكيد قصدك سيف عبد الله.

وهي بترفع بطاقة شخصية

- لا يا فندم هو متسجل بناء على بيانات البطاقة اللي كانت معاه.

عبد الله سحب منها البطاقة بيد مرتعشة دقق النظر بها ثم قال

- هو فين؟
- الإسعاف جابته من حوالي 3 ساعات، هو دلوقتي في العمليات، حضرتك هاتطلع السلم ده هتلاقي العمليات في الدور الـ..

لم ينتظرها لتكمل كلامها وانطلق مسرعا؛ نحو غرفة العمليات ليجد في لحظة وصوله أحد طاقم الإطباء يخرج من غرفة العمليات.

عاجله عبد الله لاهثاً

- طمني يا دكتور ابني عامل ايه؟
- حضرتك والد الشاب اللي جاي في حادثة العربية
- أيوه أنا أبوه
- بصراحة وهو كان نزف كتير قبل ما يوصل للمستشفى.. أحنا عملنا كل اللي نقدر نعمله لكن للأسف...

مادت الأرض تحت قدميه، تراجع خطوتين للخلف، حتى استند للحائط، كان الطبيب مستمر في الكلام

- انت أنسان مؤمن يا حاج ولازم تعرف إن كل حاجة بتاعة ربنا، البقاء لله يا حاج...

خارت قواه، ولم يتبين من كلام الطبيب شيء، رغم أن الأخير لم ينته من الكلام، اسودت الدنيا أمامه، فأغلق عيناه وترك جسده ينساب مستندا بظهره إلى الحائط، ثم مال على جانبه فاصطدمت رأسه بالأرض.

في الخلفية كان صوت الطبيب وكأنه يأتي من بعيد

- حد من التمريض يجي هنا بسرعة

فتح عبد الله عيناه وكأنه ينظر للمجهول وبصوت باكي مرتعش يتخلله شهقات همس

- لا إله إلا الله،

كرارها بضع مرات؛ قبل أن يغيب عن الوعي.

غيبوبة

المكان مستشفى (النيل العامة) - غرفة العمليات

الغيبوبة مش نوم... الغيبوبة إنك تفضل حي، بس ساكت،
مستني حد يصدق إنك لسه موجود، حد يرجعك من هناك.

أتنفس بصعوبة؛ صوت أنفاسي أيقظني من النوم رغم استغراقي. قبل أن أفتح عيني؛ أحسست بضوء قوي، لن أكون كاذباً لو قلتُ إنني أكاد أرى الضوء وأنا مغمض العينين.

جال بخاطري أن أمي هي من فتحت النافذة، فدخل منها ضوء الشمس. لم تكن سواها قادرةٌ على فعل ذلك بي.

هممت برفع كفي أحمي به عيني من الضوء الساقط على وجهي؛ لكن يدي كانت مُنَمَّلة إلى الدرجةٍ التي منعتها من الحركة.

حاولت تحريك رأسي فلم أستطع؛ فتحت عيني ببطء، فإذا بالشمس تتحول إلى عدة شموس تدور حول نفسها، قبل أن تتشكل في هيئة دائرة وتستقر على سقف الحجرة. شدة الضوء أعمت بصري؛ فلم أرَ شيئًا.

من المؤكد أنه حلم... حلم آخر من أحلامي التي لا تنتهي؛ لقد اعتدت مثل هذه الأحلام.

مع الوقت، أصبحت تفاصيل الحجرة أوضح قليلًا، لكنها كلها مضيئة؛ الحوائط، السقف، كل شيء بلا ملامح. لم أرَ سوى أشباحٍ زرقاء تتحرك حولي ببطءٍ رتيب، رؤوسها صغيرة بيضاء. رغم محاولتي المضنية، لم أستطع تحريك أي جزء من جسدي!

لكن... ما هذا المكان؟ فحجرتي ليست هكذا!

سقف هذه الحجرة يشع بضوءٍ شديد مؤلم، كأني أنظر مباشرةً إلى الشمس. كل شيء هنا باردٌ، جامدٌ، سكوناً تاما؛ والصمت هو السيد.

فجأة سمعت صوتاً مزعجاً جداً، لم أستطع تحديد مصدره، لكني شعرت بغصة في حلقي، حاولت بلع ريقي فلم أستطع، كانت هناك

رائحة تزكم أنفي ما إن تنفست حتى عطست بقوة، عطسة واحدة وكأنها شقت صدري من شدة الألم؛ على أثرها انتفض جسدي.
استطعت بصعوبة أن أجلس، ثم حاولت الوقوف، كأنني أنزع نفسي من الوحل... بعد معاناة، استقمتُ أخيراً واقفاً.
ثم وبدون مقدمات أحسست بحريةٍ وخفةٍ في حركتي. كل شيء أصبح واضحًا الآن وكأنني.. حقا لا أدري!
من النقيض إلى النقيض، تلك هي الاحلام وإلا لما كان هناك داعي لتفسيرها
التفت خلفي من حيث أتيت فرأيت مجموعة من الرجال يرتدون زيًّا أزرقاً وغطاء رأس أبيض، يلتفون حول سرير معدني؛ مستلقي عليه جسد.
كان فوق السرير دائرة معدنية كبيرة تحمل مجموعة من المصابيح القوية؛ كان أحد الرجال يتعامل مع الجسد بسرعة وحرفية، بينما يقف الباقون في استعداد. كان يقوم بتقطيب جرح في رأس المريض.
أدركتُ وقتها أنني في غرفة للعمليات، وأن هؤلاء هم الأطباء؛ فمن يا ترى المريض؟
اقتربت منهم؛ بل تجاوزتهم، دون أن يمنعني أحد، حتى رأيت وجهه؛ شهقت بقوة عندما رأيته، أنا أعرف هذا الوجه، كان يرقد في استسلام وقد امتلأ وجه بالدماء الناتجة عن جرح غائر يمتد من أعلى عينه اليمنى وحتى منتصف رأسه، أوشك الطبيب على الإنتهاء من تقضيبة دققت النظر، كان أخي سيف
طمأنت نفسي بأنني ما زلتُ أحلم، صحيح هناك الكثير من التفاصيل، لكنه في النهاية حلم... حلمٌ سيئ لا أستطيع ربط احداثه

ما لبست إلا أن رأيت الأطباء حول سيف وقد إزدادت حركتهم بعدما أشار أحدهم إلى شاشة جهاز يعرض عدة خطوط مستقيمة بألوان مختلفة يصحبها صوت أزيز مستمر يكاد يصم أذني.

سمعت أحد الاطباء يقول

مافيش فايدة... مات يا دكاترة.

أقتربت منه أكثر، كان جسده بارد كالثلج، كنت خائفا، كنت مرعوباً، وصوت يعلو بداخلي

- هذا ليس حلماً.

لقد تذكرت الآن، لقد كنا في السيارة وكنت أتولى القيادة ومن ثم، ضوء عالي وأصطدام!...

منتهى الضعف وقلة الحيلة، هذا هو احساسي لعدم قدرتي على فعل شيء لأنفاذ أخي وأنا أراه يموت أمامي. وأنا السبب

في هذا الوقت خرج الطبيب الذي أعلن عن الوفاة من غرفة العمليات وسمعته بوضوح يتكلم مع صوت كصوت أبي، في الخارج.

هممت بالخروج خلفه لأرى ما يحدث، لكنني تراجعت واقتربت من سيف أنظر في وجهه أحاول ايقاظه، أو إيقاظ نفسي من هذا الكابوس اللعين.

حينها سمعت صوت الطبيب في الخارج يصرخ

- حد من التمريض يجي هنا بسرعة

صوت الطبيب جعل قلبي يرتجف، ما إن فتح أحدهم الباب حتى خرجت أسبقهم.

وجدت الطبيب يجلس على ركبتيه وبجنبه شخص أخر يفترش الأرض أقتربت منه ويا لهول ما رأيت، أنه أبي وقد انقطعت أنفاسه، حاولت رفع رأسه عن الأرض، لم أستطع، كان ثقيلاً جداً يدي كانت ترتعش، وانتابتني حاله من الخوف والهلع، أخذت أبكي وأنا أمسح بيدي وجهه ففتح عينيه ونظر إلي وقال

- لا إله إلا الله

كرارها مرتين أو ثلاث قبل أن يغيب عن الوعي، ... ماذا يحدث؟

أخي مات وأبي بين الموت والحياة، وصوت بداخلي يصرخ.

- أنت هاتفضل تتفرج؟ ده مش حلم، دي حقيقة. كل حاجة حواليك بتقول كده.

الأحلام مافيهاش كل التفاصيل دي؛ كفاية خوف، اعمل حاجة.

لا أدري ماذا حدث لكني لن أظل بلا فائدة سوف أتصرف وكأنه ليس حلم

أسرعت نحو غرفة العمليات، وجدت ثلاثة أطباء يحاولون أنعاش سيف، واثنان من طاقم التمريض وكان بجوارهم كرسي متحرك.

اقتربت منهم وصرخت بهم وأنا أبكي

حد يلحق ابويا واقع على الأرض برا والدكتور بيقوللكم محتاج حد يساعده تعالوا بسرعة.

جذبت الكرسي بيدي وخرجت مسرعاً، فلحق بي أحدهم، ثم تبعه الآخر. بدأت برفع رأس أبي وساعدني أحدهما حتى وضعناه على الكرسي، وأسرعنا به نحو الطوارئ وعيني لا تتوقف عن البكاء.

— ✦ —

دخلت معهم إلى غرفة الطوارئ. بعد دقائق قليلة تحدث الطبيب قائلاً للموجودين

- عايزين نتواصل مع أهله بسرعة.

كنت أقف بجوار السرير وأنا أمسح على وجه أبي فلتفت للطبيب وقلت

أنا أبنه يا دكتور. ماله بابا؟

لم يلتفت لي وظل ناظرا نحو الممرض وأكمل

دي جلطة في المخ ولازم ياخد حقنة بسرعة.

التفت لأبي وعيني تنهمر بالدموع، أخذت أهز جسده وأنا أقول

- لأ... بابا كويس فوق يا بابا

الممرض أشار ناحية الباب وقال وهو يتحرك تجاهه

- حضرتك كان في شاب معه... تقريباً ابنه

خرج الممرض سريعا ثم عاد وهو يقول متعجباً

- مش موجود!

- مين ده اللي مش موجود؟

- الشاب اللي قال لنا أن أبوه وقع والدكتور عايز...

قاطعه الثاني

- لأ ما كانش فيه حد. أنا لقيتك بتجري بالكرسي لوحدك، فجريت معاك .وبعدين سمعنا دكتور عبد العظيم بينده بصوت عالي، عايز حد يساعده

الدكتور عبد العظيم قال بحدة

- مش مهم مين اللي قال لكم، المهم أن الراجل ده يبقى والد الشاب اللي كان في العمليات. ولما عرف أن أبنه مات وقع من طوله

لن أستمع لحرف آخر من هذا الأخرق.

عيني التي كانت تذرف الدمع جمدت فجأة، ضربات قلبي

المتسارعة هدأت. وأيقنت أنه يجب علي السيطرة على احلامي،

اقتربت بثبات من أبي ورفعت رأسه بيدي وهززتها بقوة وأنا

أصرخ

- محدش مات يا بابا. ده حلم.

شهق أبي وأخذ يسعل بقوة، ثم مال على جنبه، جسده أصبح ثقيل

جداً على يدي فكاد أن يقع لولا تدخل دكتور عبد العظيم بسرعة

واضعاً يده برفق أسفل رأسه وساعده أحدهم في تصحيح موضعه

على السرير وهو يقول للدكتور

- حضرتك سمعته بيتكلم
- ماخدتش بالي

- سمعت صوت بيقول محدش مات
أبي كان بداء يتحدث بالفعل وهو مغمض العينين، قال بصوت خفيض مليء بالحزن
- ابني ما متش أنا شوفته

— ✦ —

تأكد لي أن أبي لم يراني أو يشعر بوجودي؛ وكذلك الجميع.
يا له من كابوس لعين! متى سأستيقظ؟
خرجت عائدًا نحو غرفة العمليات، فوجدت سيف عينيه وفمه مفتوحتان ورأسه تميل للخلف.
وجسمه ممتلئ بالجروح والكدمات وهناك جرح غائر في جبهته فوق عينه اليمنى كان الطبيب قد انتهى من تضميده، نصف جسده مغطى بملائة قد صبغ الدم معظمها، وضعت يدي على وجهه، كان بارد جداً.
أغمضت عيناه، وأغلقت له فمه وقمت بتعديل وضع رأسه، حينها أقترب أحد الأطباء من سيف باهتمام.
فتح عيناه، فحصها وأمسك جهاز له مقبضان وقال صارخا لباقي الفريق
- ها نعمل صدمات كهرباء.
الدكتور بدأ فوراً بتشغيل جهاز ما، وانتظر لحظات حتى سمع لصوت صفير مرتفع فصرخ محذراً باقي الفريق
- Don't touch ... shock
ثم وضع المقبضين على صدر سيف العاري.

رأيت جسد سيف، يهتز بقوة ثم يعود كجثة هامدة بلا حراك، رفع الطبيب المقبضين وأعاد النظر لشاشات الأجهزة. في حين بداء طبيب أخر بوضع جهاز للإنعاش الرئوي على فمه وأنفه.
اقتربت من جسد سيف، وضعت يدي على كتفيه وأنا أبكي، نزلت مني دمعة على وجهه فشهق،
لاحظ الطبيب شهقة سيف، فجعل يضغط على عدة أزرار في الجهاز أمامه،
وما أن سمع صوت الصفير يعود حتى صرخ مجدداً
- Don't touch ... shock
ووضع المقبضين على صدر سيف مرة أخرى؛ كنت لا أزال ممسكا بكتفيه محاولا التخفيف عنه.
رأيت حينها جسد سيف يرتعش بقوة وشممت رائحة تشبه رائحة الشعر المحترق، شعرت حينها بألم لا يوصف، كانت الكهرباء قد صدمتني، فأحسست كأني أحترق دفعة واحدة، صرخت رغما عني من شدة الوجع.
ترك الطبيب مقبضي جهاز الصدمات جانبا، وقال لمساعديه
- بدأ يستجيب، حقنة Epinephrine
أسرع أحد مساعديه في تحضير حقنة لها سن طويل، بعدها بدون تردد طعن سيف في قلبه مباشرة بالحقنة وصرخ فيهم
زودوا الشحنة لـ 200 جول

صدمة الكهرباء الأخيرة كانت عالية جداً جعلت جسد سيف ينتفض وكأن عظامه تتهشم، وجعلتني أغيب عن الوعي... أو ربما أستيقظ

حاول الدكتور عبد العظيم السيطرة على عبد الله

- يا أستاذ عبد الله مش ها ينفع تقوم كده انت تعبان، لازم نطمن عليك أنت الأول.

عبد الله بنبره حاده بعد أن وقف

- أنا بقيت كويس يا دكتور، ما تخفش عليا، أنا مؤمن بالله وراضي بقضائه، بس لازم اشوف أبني، عايز اشوفه ولا مش من حقي

- لأ طبعا من حقك، ربنا يصبرك على فراقه ويجعله من أهل الجنة. تعالى معايا بس أرجوك من غير انفعال

عبد الله خرج مع الدكتور وتحرك بخطوات سريعة نحو غرفة العمليات فقال له الطبيب

- بالراحة يا حاج على مهلك

فور رؤيتهم للافتة غرفة العمليات وقبل الوصل اليها بعدة أمتار خرجت ممرضة مسرعة تركض في الاتجاه الأخر فسألها دكتور عبد العظيم بصوت عال

- في إيه؟ بتجري ليه؟

قالت دون ان تتوقف

- دكتور مراد الحفناوي جوه، طالب أكياس دم بسرعة

دكتور عبد العظيم قال متعجباً

- دكتور مراد؟ ... هو جيه آمتي؟

- بعد ما حضرتك خرجت على طول

الدكتور دخل مسرعاً غرفة العمليات وهو يقول لعبد الله

- سبحان الله كان قلبه وقف تماماً قبل ما أخرج والله

عبد الله حاول يدخل فمنعه التمريض فجلس يبكي على أقرب مقعد وهو يقول

- الحمد لله... رضيت بقضائك يا رب،... اللهم انت المنجى

دقيقة والممرضة رجعت ومعها صندوق يحتوي أكياس الدم، عبد الله استوقفها وقال لها برجاء

- إبني اخباره ايه يا بنتي؟
- ربنا أحياه، اتكتبله عمر جديد. ادعي ربنا ياخد بأيده، هو دلوقتي محتاج دعوتك.

— ✦ —

حالة متأخرة

المكان مستشفى (النيل العامة) مكتب الدكتور مراد
الزمان ديسمبر2015 بعد اسبوع

نقر عبد الله على الباب وقبل ان يدخل حيا دكتور مراد، رحب به الأخير ودعاه للدخول، صاحه قبل ان يعاود الجلوس

- عرفت أن حضرتك اللي أنقذت إبني فا كنت عايز... أولاً أشكر حضرتك، لولاك كان زمانه ميت دلوقتي. وثانياً كنت عايز أسألك على حالته. هو هيفوق أمتي؟
- بص يا صديقي... تسمح لي أقولك يا صديقي
- شرف لينا يا دكتور
- صديقي العزيز، أنت كأب لازم تعرف كل تفصيلة عن حالة أبنك... وده من حقك عليا. بس لازم تمسك نفسك ومتقعش مني زي ما عملت مع دكتور عبد العظيم آه أنا راجل كبير مش هاقدر اجري بيك
- غصب عني يا دكتور. وبعدين أنا بقيت كويس. بس معنى كلامك إن الحالة خطيرة جداً... ومفيش أمل.

دكتور مراد منفعل

- لأ متقوليش معنى كلامي ايه... اللي انا عايز أقوله هاقوله، ومتحاولش تفهم حاجة من ورا الكلام، انا هاقول لك الحالة بمنتهى الصراحة
- خلاص يا دكتور. أنا هاسمع حضرتك. بس طول بالك عليا.
- عايز اقولك يا صديقي ان ابنك رأسه اتخبطت خبطة جامدة وقت الحادثة، وحصله ارتجاج ونزيف عمل له تجمع دموي في المخ. الموضوع ده خلاه يدخل في غيبوبة...

ودكتور عبد العظيم ده،... جراح مخ ممتاز. عمل جراحة معقدة في الوقت المناسب وقدر يشيل التجمع الدموي، ويوقف النزيف ...

- الحمد لله ... من فضل ربنا
- أيوه صحيح... من فضل ربنا.

لكن الولد كان دخل في كومه، غيبوبة يعني، وبعدين قلبه وقف لدقائق قبل وصولي زي ما قالوا الدكاترة...
وده خلى دكتور عبد العظيم يفقد الامل ويخرج، خصوصا وهو كان عمل كل اللي يقدر يعمله. وكان مرهق جدا فخرج من غرفة العمليات قبل وصولي.

- حضرتك الخير والبركة

دكتور مراد بيقوم يتحرك في الغرفة ويحرك أيده في الهواء وكأنه عايز يلاقي كلمات مناسبة وبيكمل بعد ما يشعل سيجارة ويسحب منها نفس عميق

- أنا مش لاقي تفسير للي حصل... بعد ما دخلت غرفة العمليات، لقيته بيغمض عينه، وبيعدل رأسه، رغم عدم وجود نبض مسجل على الأجهزة.
- مش ممكن تكون الأجهزة عطلانة؟
- الأمر ده غير وارد علميا. الجهاز يا إما يكون شغال، يا إما مش شغال. بصراحة هي حاجة عجيبة جداً. بس عشان مفيش شيء مستحيل، قررت أعمله إنعاش قلبي رئوي...

والحمد لله إني أخدت القرار ده، لكن عدم وصول الدم للمخ في الفترة دي، أحتمال كبير يكون السبب اللي يخلي الغيبوبة تاخد وقت اكتر.

- قول لي يا دكتور. هو ممكن يقوم من الغيبوبة، ويرجع طبيعي.
- أكيد طبعا، لكن كمان خلينا نكون مستعدين لأي شيء ممكن يحصل بعد الإفاقة
- قصد حضرتك...

قاطعه دكتور مراد بعصبية

- مش قصدي... أنا بكلمك بشكل علمي، في حاجة أسمها مقياس غلاسكو، وده وضح لنا ان الغيبوبة شديده...

وعلى أساس كده، بقولك إنه ممكن يفضل في الغيبوبة دي كام أسبوع، وبعد ما يفوق كمان هايحتاج لأدوية، وعلاج طبيعي وإعادة تأهيل، علشان يقدر يرجع يمارس حياته بشكل طبيعي.

- يعني هيعيش عنده إعاقة
- لا لا يعني لو قصدك شلل وكده،... بص مفيش إصابة في العمود الفقري أو النخاع،

اللي يخوفني هو تلف خلايا المخ. ده ممكن يفقده البصر مثلا

- فقدان بصر. لا قدر الله
- أيوه يا صديقي لا قدر الله طبعا، ممكن كمان يعاني من نوبات صرع. أو فقدان في الذاكرة..

عبد الله باكياً

- صرع وعمى وفقدان ذاكرة، لا حول ولا قوة الا بالله؟
- لا لا اهدي يا صديقي، إحنا نتوقع الأسواء علشان نرضى بقضاء ربنا، والكلام ده كمان لسه بدري عليه قوي...

يفوق الأول وكل حاجة لها علاج بإذن الله

- يعني الموضوع ده هيطول يا دكتور.

- محدش يقدر يقول كده، أنا بقولك كام يوم أو كام أسبوع، دنتا لو متعور في صباعك يا راجل الجرح بيقعد أسبوعين تلاته، ولا إيه؟ ودي حادثة وجراحة في المخ وغيبوبة وقلب وقف.
- سلمت امري ليك يارب

— ✦ —

بين النبض والظل

المكان :داخل الجسد لا زمان ولا مكان محدد
الزمن :بعد الحادثة مباشرة، بينما الجسد في غيبوبة

لم يكن هناك ضوء، ولا ظلام... فقط مساحة رمادية لا تعرف السكون.

كنتُ أسمع صوت قلبي، لكنه لم يكن في صدري.

كان الصوت بعيدًا جدًا... كأن النبض يحدث في جسدٍ آخر، وأنا مجرد مستمعٍ غريبٍ يراقبه.

لم أكن ميتا.

لكن الحياة أيضا لم تكن في.

كنت عالقا بين الاثنين، كمن يسير على حبل مشدود بين عالمين، لا هو قادر على العودة، ولا على السقوط.

سمعت أصواتا تتحدث. كأنها تأتي من فوق الماء.

صوت أبي وهو يبكي
خليك معانا يا ابني... كفاية واحد مات.

وصوتٌ آخر يشبه صوتي، لكنه لم يكن أنا.

هادئٌ جدًا... أقرب إلى الهمس، لكنه واضح في رأسي
أنا لسه هنا يا بابا.

حاولتُ أمدّ يدي. لم يكن لي يد.

حاولتُ أصرخ، لكن الصوت ارتدّ إلى داخلي،
بداخلي رغبتان واحدة ترجوني أن أقاوم، وأخرى تهمس لي أن أتركه

ومن بعيد، رأيتهم يتحركون حول جسد ممدد على سرير أبيض.

جسدي. وسمعتُ من يهمس من جديد

هو مش ميت... لكن لسه بدري علشان يرجع يفوق، أنت هاتفضل تتفرج؟ كفاية خوف، اعمل حاجة.

كانت هذه اللحظة هي البداية الحقيقية لِما سموه لاحقا غيبوبة.

لم يكن مرضًا كما ظنوا، بل اتفاقا غير معلن بيني وبينه.

هو يحيا بالجسد، بإسمي، وأنا أبقى في الظل، أراقب النبض ولا أملكه.

— ✦ —

معضلة الجسد

المكان مستشفى (النيل العامة) العناية المركزة

الزمان يناير2016 بعد اسبوع

كان إحساساً غريباً يصل لدرجة الرعب. تخيل أن تفتح باب شقتك بعد أن يرن الجرس، فلا تجد أحداً. تخطو بضع خطوات نحو السلم، تنظر أسفل الدرج، ولا أحد...

ثم فجأة... يُغلق الباب خلفك بقوة من تيار هواء بارد، لا مفتاح معك.

الليل بارد، وأنت حافي القدمين، ترتجف، وليس معك هاتف، والمنزل خالي تمامًا إلا منك.

تلك مصيبة، أليس كذلك؟ لكن صدّقني، كل هذا لا شيء مقارنة بما مررتُ به. فأنا لم يُغلق عليّ باب شقة...

بل أُغلق عليّ في جسدٍ ليس جسدي.

حين عدتُ إلى الوعي، وجدت نفسي حبيس جسدٍ أخر، جسد سيف. أخي.

لا أعلم كيف وصلتُ إلى هنا. هل أنا ميت؟

لكنني أعي كل ما حولي بوضوح، لديّ ذاكرة، حتى وإن لم تكتمل بعد.

إن كنتُ لم أمت، فأين جسدي إذًا؟

وإن كنتُ قد متُّ فعلاً، فكيف أرى وأفكر وأتذكر؟

ما الذي يحدث لي بالضبط؟

كيف أكون داخل الجسد وأتحكم فيه أحيانًا،

ثم أراه من الخارج في الوقت ذاته؟ وسيف أين ذهب؟

جسده موجود أمامي، لكن هو... لا أثر له.

لا يتألم حين يغرزون في وريده الإبرة،

ولا حين يركّبون له المحاليل، كأن جسده خاوٍ إلا من بعض أنفاس.

كنتُ أحاول كثيرًا أن أرفع رأسه أو أفتح عينيه، فيستجيب بصعوبة،

كأننا نتنازع على الجسد ذاته.
وكل مرة أحاول أن أكلم أبي أو أمي وأقول لهم الحقيقة،
أنني يوسف، وأن سيف هو من يرقد في الغيبوبة،
لكنهم لا يمنحوني فرصة. قلَّما سمعوني، وإن فعلوا، كانوا مقتنعين
أن المتحدث أمامهم هو سيف... لا أحد غيره.
والأغرب من كل ذلك...
أن أحدًا لم يذكر اسمي أبدًا، لا أبي، لا أمي، لا أحد.
ولا حتى بالخطأ. كأن يوسف لم يوجد أصلاً.
بصراحة؟ ... هذا ما يؤلمني أكثر من كل شيء آخر.
أريد فقط أن أفهم... لماذا نسوني؟ ولماذا أنا ما زلت هنا؟

— ✦ —

اندماج

مستشفى (النيل العامة)
الزمان يناير 2016 بعد اسبوعان من الحادث

كان أبي وأمي يأتون كل يوم، يجلسان بجوار سيف بالساعات، وخالد أيضًا كثيرًا ما جاء.

كنت أراهم جميعًا... أسمعهم، أحاول التواصل، لكنهم لا يسمعونني.

كأن بيني وبينهم جدارًا لا أراه، أمد يدي فلا أجد إلا الهواء.

ذات مرة رأيت أبي يبكي دون صوت، عيناه مثقلتان، وشفاهه تتحرك بدعاء لم أتبينه، أردت طمأنته، قلت له

- سيف هيبقى كويس يا بابا

رفع رأسه كأنه سمعني، ثم انحنى يقبل رأس سيف وهو يقول

- أنا عارف يا سيف هتبقى كويس إن شاء الله

غمرتني سعادة غريبة... لقد سمعني!

لكن... لماذا يخاطبه هو باسمه وكأنه من تكلّم وليس أنا؟

من منا يستحق الاهتمام، هل أنا الحي... أم هو الميت.

لم أحتمل الصمت أكثر. أردتهم يعرفوا أني موجود، أني أنا يوسف.

- يا حبيبي يا سيف شد حيلك وبإذن الله هتفوق، وهتبقى كويس... خليك معانا يا ابني وكفايا أخوك اللي راح مني.

إصابتي قشعريرة، أدركت الحقيقة، عرفت الآن لماذا يتجنب الجميع الحديث عني أنا يوسف... الميت!

— ✦ —

لم يتوقف أبي عن الكلام مع سيف سمعته يقول

- أنا وماما وخالد، معاك ومش عيزين حاجة من الدنيا غير إنك تخف وترجع البيت.

آه يا أمي، ... من أين لكِ بالصبر على فراق أبنائك؟ يوسف مات وسيف طريح الفراش. من أين لكِ بالصبر؟

لكن إذا كنت ميتًا، فلماذا أشعر بدفء يد أمي وهي تمسح على وجهي؟ أقصد وجه سيف ولماذا يتجنب الجميع الحديث عني، وأين ذهب جسدي بعد الحادثة؟

لم أستطع السيطرة على نفسي، اختنقت بالبكاء، في تلك اللحظة ارتعش جسد سيف بعصبية، كأنه دخل في نوبة صرع، تصاعد صفير الأجهزة، ارتبك أبي وهو يقول لخالد

- روح بسرعة هات حد من الدكاترة او التمريض

بكت أمي وهي تمسح على وجه سيف وصدره

- جيب العواقب سليمة يا رب، والنبي يا رب لتنجيه لجل حبيبك النبي

أحسست بدفأ يدها وكأنها على وجهي أنا، تأكدت وقتها أن روحي قد سكنت جسد سيف.

نظرت إليها، فإذا بعينَي سيف تنفتحان على مهل، كانت لا تزال واضعة يدها على صدر سيف تتمتم بآيات من القرآن بصوت خفيض، من الداخل كنت أنا من ابتسم وقلت لها

- ازيك يا ست الكل ... وحشاني

قبلت أمي رأس سيف وبصوت يعلو بالسعادة

- عبد الله، يا عبد الله...

ثم اختلط صوتها بصوت الصفير المنتظم للجهاز...الصفير الذي بدأ يتسارع، يتغير،
ليتحول شيئًا فشيئًا إلى رنات متقطعة...رنات كثيرة... مألوفة...
جرس الباب!
كل شيء حولي يتبدد، ضوء شديد أعمى بصري، لحظات،
ثم شعور بالأمان يغمرني، أفتح عينيّ، فأجد نفسي واقفًا أمام باب البيت... بيت أبي.
وصوت أمي، كما كان دوما، يأتي من الداخل.
- أيوه حاضر يا للي على الباب. يوه هي الدنيا طارت؟
ما إن فتحت الباب حتى دخلت مسرعاً، وكاد هو أن يمسك بي إن تأخرت أمي عن فتح الباب لحظة واحدة.
دخلت غرفة أمي وأغلقت بابها خلفي التمس الأمان، سمعته قادم من خلفي لاهثاً

- هو فين؟ شفتي يا ماما يوسف عمل إيه؟
- عمل لك إيه تاني؟
- في المدرسة لما نزلنا الفسحة، اتخانق مع أصحابه وضربهم!
- وإنت كنت فين لما ضربوا أخوك؟
- يا ماما بقولك هو اللي ضربهم، وأنا كنت بلعب كورة... مشوفتش اللي حصل.

صوت أبي من الداخل، صلب وحازم

- تعالى يا سيف.
- نعم يا بابا؟
- عمل إيه الواد يوسف؟
- اتخانق مع أصحابه وضربهم... وكان هو اللي غلطان.
- الناظر خده مكتبه واداله أسبوع رفد

- يستاهل... ولسه لما أشوفه!
- مش هي دي المشكلة يا بابا
- فيه حاجة أكتر من كده؟
- أيوه يا بابا، الناظر لما سأله عن أسمه قال له، أن اسمه سيف عبد الله، يعني كده أنا اللي مرفود يا بابا
- يا ولد يا يوسف

قالها أبي بصوت اهتزت له جدران المنزل، كنت أختبئ في غرفة أمي كالعادة حين أشعر بالخوف، دخل أبي...
دائما يعلم أين يجدني، سحبني من أذني بقوة، خرج بي حيث أمي وسيف وبصوته الغاضب.

- بتكدب ليه يا ولد؟
- أي... أي، أنا مكدبتش يا بابا، أنا... أنا.. كنت خايف.
- أنا ممكن أعديلك أي غلطة... أي غلطة إلا الكدب.

قالها ولطمني على وجهي لطمة القت بي إلى الأرض، أغمضت عيني وأخذت في البكاء، أحسست بأيدي أمي الحانية تربط على وجهي وهي تقول

- كفاية يا عبد الله ... يا عبد الله

تلاشت الأرض من تحتي وتبددت الجدران.
لماذا أشعر وكأن تلك الذكريات ليست لي؟ ...
ثم عاد إلى أذني صوت الصفير المنتظم مره أخرى، وصوت أمي خافتا يعلو بالسعادة.

- يا عبد الله، تعالى يا عبد الله سيف فاق، فتح عينه وكلمني.

اقترب أبي من السرير، هزه بلطف،
لكن الصمت كان أعمق من أن يكسر فخرج مسرعا،

كنت قد انتهيت قبلها من البكاء، بلمسه من كف أمي الحانية، لمستها تزيل عني الخوف والألم، وكان جسد سيف قد عاد لحالة الثبات، ما لبس أن عاد ومعه دكتور عبد العظيم، قال أبي.

- يا دكتور بقولك كلم والدته دلوقتي، وكلمني أكتر من مره قبل كده.

قام الدكتور بفحص الأجهزة وقال بجدية

- مفيش أي نوبات صرع متسجلة على الأجهزة

رفع أبي رأسه بعناد، عيناه متورمتان

- بقولك أنا سمعته... سمعته بيكلّمني.

خيل للطبيب أن عين سيف رمشت، فقام بحص عينه وفمه وأكمل حديثه

- يا فندم أنا أسف، مفيش أي علامة تدل على أنه فاق. لسه بدري على الكلام ده. وموضوع أنه كلمك ده غريب جداً.
- أنتوا مش عوزين تصدقوني ليه؟
- يمكن حضرتك اللي رافض تصدق.
- خلاص مبدهاش، أنا كده لازم أنقله مستشفى تانية.

—✦—

المصحة

مستشفى (النيل العامة)
الزمان 5 يناير 2016

في صباح اليوم التالي، جاء أبي مبكرًا. جلس طويلًا في مكتب الاستقبال، ووقّع أوراقًا كثيرة،
ثم أمسك القلم لحظة وسكت... كأنه يوقّع على قدر لا يريد الاعتراف به. قال له الطبيب المسؤول
حضرتك بتخرج الحالة على مسؤوليتك الشخصية؟
هز أبي رأسه، ولم يقل شيئًا.
بعد ساعة، تحرّكت سيارة الإسعاف. كنت أراها من فوق جسدي كمن يشاهد حلمًا بعيدًا. الطريق طويل، صوت صافرات الإسعاف تخترق الهواء، وكنت أنا بين ضجيج الأجهزة وغياب الوعي.
لم أعرف كم مر من الوقت، لكننا وصلنا في النهاية إلى مكان مختلف... مستشفى حديثة، كل شيء فيها يلمع كالمعدن البارد.
هناك، تغير كل شيء. الاهتمام، النظافة، الأجهزة، الوجوه.
أطباء من كل التخصصات، مواعيد ثابتة، جرعات محسوبة بالثانية، حتى جسد سيف الممدد على السرير صار يتحرك ببطء بواسطة أجهزة حديثة تحمي عضلاته من الضعف إن طالت الغيبوبة.
كنت أنام كثيرًا... أو أغيب كثيرًا، لا أدري! فالأصل أني ميت، والوعي هو الشيء الغريب الآن.
في الأيام التالية، بدأت أتعلم كيف أتحكم بجسدي الجديد. أصابع اليد تتحرك قليلاً، العين تفتح وتغلق، لكنها لا تدور في محجريها. كنت أشعر أنني أُعيد تعلم الوجود من البداية، لكن سمعي كان حادًا بشكل خارق، أسمع كل صوت مهما خفتت، مجرد أن أركز، أصل إليه.
ربما هي الأدوية التي يحقنون بها سيف، أو ربما هي هبة الموت

لمن لم يمت تماما. كنت أغيب أحيانا لأيام، ثم أعود فلا أعرف كم مر من الوقت.

—✦—

في إحدى المرات، سمعت خطوات تقترب من السرير. لرجل وسيدة... نبراتهما تدل على أنهما طبيبان.
كانت الغرفة غارقة في الظلام، ومع ذلك كانا يتحركان بسهولة، كأنهما يبصران بعين لا تحتاج إلى ضوء.
قالت المرأة بصوتٍ بارد، كأنها تقرأ من تقرير رسمي

- إصابة في الفص الجبهي والقشرة الحركية. حصل نزيف أدى لتجمع دموي.
إتعملت له جراحة لوقف النزيف وسحب التجمع الدموي، لكنه دخل في غيبوبة بعد العملية...

سألها الرجل ببرود

- بقاله قد إيه في الغيبوبة؟
- ثمانية وعشرين يومًا. وصل عندنا من عشرة أيام .ماشيين معاه ببروتوكول.D
- مين اللي استلم الحالة؟
- أنا يا دكتور، والده كلمني. بصراحة **ما كنتش عايزة** أقبلها، لكن الراجل حول المبلغ المطلوب في نفس اليوم قبل ما يخرجه من الرعاية في مستشفى النيل ويجيبه هنا.

أردت أن أراهم، حاولت فتح عيني، فلم أستطع. الغرفة غارقة في السواد، ومع ذلك رأيت ضوءًا صغيرًا يتراقص من بعيد، نقطة بيضاء تولد من العدم.

سأل الطبيب بنبرة متفحّصة

- قلتي مين اللي جابه هنا؟
- والده يا دكتور. بيقول الحالة بتفوق أحيانًا، تقول كلمتين تلاتة، وبعدين تدخل في غيبوبة تاني.
- غريبة حكاية "بيفوق" دي... طيب، عايز أشوف والده النهارده.
- أنا بنفسي شفته بيفتح عينه أكتر من مرة، وفي ممرضين سمعوه بيتكلم.
- أبوه مقالش مين اللي دله علينا؟

قال إن صديق ليه اداله رقم المستشفى...

أكمل الطبيب

- طيب، بالنسبة للأستجابة الحسية؟
- منعدمة تقريبًا، بس في استجابة ضعيفة في العين الشمال.

أثناء الحوار، شعرت بشيء يتغير. الضوء الصغير بدأ يكبر، يقترب. حاولت فتح عيني مرة أخرى... ونجحت. رأيت الطبيبة التي كانت تتكلم قبل قليل واقفة بجانبي. وعلى الكرسي عند طرف السرير جلس رجل في منتصف العمر، يحمل أوراقًا كثيرة، يقلبها بهدوء ويدقق فيها بعين خبيرة. عرفت أنه الطبيب الكبير... صاحب الكلمة الأخيرة. جمعت كل ما تبقى لي من وعي، وقلت بصوت خرج واضحا على غير عادتي

- أنا فين؟ ... فين بابا؟

رفع الطبيب رأسه، خلع نظارته ببطء، وقال بصوتٍ متعجب نصفه دهشة ونصفه سخرية

- ده الموضوع بجد بقى!

ثم مال نحو الطبيبة وهمس لها، لكن صوته كان واضحًا في أذني كأنه في رأسي
- اتصلي بوالده بنفسك يا آمال، ضروري أشوفه النهارده.
غادرت الطبيبة الغرفة بهدوء، بينما اقترب هو مني،
ارتدى قفازًا في يده اليسرى، مال على رأسي، وسلّط ضوءاً أبيض قوياً في عيني.
- سيف... أنت شايف حاجة كده؟

— ✦ —

سلّط الطبيب كشاف صغير مباشرة في عيني.
الضوء الأبيض اخترق كل شيء، رأيت جسدي من الخارج للحظة، ثم عاد بصري ببطء كمن يخرج من نفق طويل.
شايف... نور.
لم أتأكد إن كان صوتي خرج فعلًا أم ظل حبيس رأسي، لكن الطبيب تراجع قليلًا ودوّن شيء في الأوراق. كان صوته هادئًا على نحو مقلق، صوت من اعتاد التعامل مع الغرائب دون أن يظهر دهشة.
رفع الطبيب رأسه، نظر طويلًا يفحص شاشة جهاز أعلى رأسي، وهو ممسك بعود خشبي عريض وهو يقول
افتح بقك يا سيف؟
فجاء الرد ببرود حاسم
سيف مات، أنا مش سيف.
رفع حاجبيه في تعجب، حاول ان يكمل معه الحديث لكنه، كان قد عاد لصمته المطبق

— ✦ —

وفي الممر، بعد أن خرج الطبيب من الغرفة، وجد دكتورة آمال عائدة نحوه. أشار لها أن تقترب، وقال بصوتٍ منخفض متعب
كلمتي والده يا آمال؟

أيوه يا دكتور، قال إنه هيكون موجود بعد الظهر .

تمام، أول ما ييجي يدخلي المكتب فورًا.

يتنفس بعمق ثم يتابع، بالنسبة للحالة دي، هنبدأ نحول بالتدريج على بروتوكول.G

نبدأ حالًا؟
لأ، خلال اليومين الجايين. هتبدلي معاه ما بين حقن تنشيط الجهاز العصبي وحقن الأوركسين.

يصمت قليلا، ينظر لأعلى ويحرك اصبعه في الهواء، وكأنما يكمل أحجية في عقلة ثم يكمل
وبالنسبة لجهاز التحريك، هو بيقعد عليه قد إيه؟
جلستين. واحدة ساعة الصبح، والتانية نص ساعة بالليل.

لأ، من الليلة أربع جلسات، كل جلسة ساعة كاملة.

وجلسات التحفيز الكهربائي... زوديها تدريجياً، لحد ما نشوف استجابة فعلية.

هزّت رأسها في صمت، وقالت وهي تدون ملاحظاتها بسرعة
حاضر يا دكتور، كل حاجة هتتم زي ما حضرتك طلبت.

تحرك فؤاد ببطء في الممر، وهو يقول
الحالة دي بقت بتاعتي أنا يا آمال أنا هشرف عليها بنفسي

وصدى كلمات الأخيرة ظل يرافقها كأنه يتحدث لنفسه:

سيف مات... أنا مش سيف... الجملة دي لوحدها محتاجة ندوة.

—✦—

بعض الأفكار لا تظل أفكارًا طويلاً
أحيانًا تبحث عن جسد لتسكنه

جمهور الفيلسوف

المكان :قهوة في وسط البلد
الزمان :ديسمبر 2021

كانت القهوة مزدحمة كعادتها، ضجيج الشارع، يختلط مع صوت الملاعق حين تصطدم بالفناجين في إيقاع منغم ومتكرر، شبه ثابت.
دخل يوسف بخطوات واثقة، جلس إلى طاولته المعتادة في ركنٍ هادئ، بعد أن طلب لنفسه فنجان من القهوة.
كان يرتدي بدلة رمادية لامعة بخطوط دقيقة، قميص أبيض مفتوح الزر الأول، وساعة معدنية ثمينة. بشرته صافية وعيناه لا ترمش،

لولا السيجارة التي أشعلها ببطء وهو يراقب تصاعد الدخان.
لظنه من رأه أنه تمثال من الشمع.
ما أن رأه سعيد حتى اقترب منه بخطوات متحمّسة، وعلى وجهه ابتسامة صاخبة

- يا هلا يا دكتور! اتأخّرت ليه كده؟ إحنا قاعدين من بدري منتظرينك
- يوسف ابتسم ابتسامة قصيرة.

قلت أسيبكم شوية تتخانقوا قبل ما أجي.

ضحكت هالة وهي تسحب كرسي قبل ان تجلس

- والله لو كنت اتأخرت دقيقة كنت مشيت!

حرك يوسف فنجان القهوة جانباً، قبل أن يخرج من حقيبته ملفًا صغيرًا، وضعه على الطاولة

- كنا بنتكلم عن الروح، صح؟

أجاب سعيد بجدية مصطنعة.

- أيوه، كنت هتتكلم عن نظريتك الغريبة عن الأرواح اللي بتعيش وسطنا!

تنهد يوسف وأشعل سيجارة

- بص يا سعيد... أنا رأيي إن الروح مش محبوسة في الجسد فقط،
في مثلا أرواح بتفضل قريبة من ناس بعينهم، وأرواح بتتعلق بأماكن أو أشياء، في شكل طاقة، مش مادة.

هالة تتحدث باهتمام وقد بدا على وجهها السعادة

- يعني هتتكلم عن الجن والعفاريت؟ ... زي عفريت المصباح كده؟

هزّ يوسف رأسه نافيًا

- لأ مش كده... الروح مش جن وعفريت، ومش دايماً بتكون شريرة، في ارواح لكائنات تانيه. والشر الحقيقي مش في الجن بس، الشر موجود في الإنسان نفسه.

ضحك سعيد

- آهو يا عم، دخلتنا في الفلسفة تاني. خلاص بقيت فيلسوف رسمي!

يوسف وهو ينفث دخان السيجارة

- الفلسفة دي وسيلة نفهم بيها اللي مش بنقدر نفسّره. أنا قابلت حالات غريبة يا سعيد... أرواح بتحاول تفضل، كأنها رافضة تمشي.

هالة بحذر

- انت بتقول قابلت، يعني أنت شفت حاجة بعينك!
- ممكن أكون شوفت. بس مش دايمًا العين هي اللي بتشوف الحقيقة. أوقات... الروح هي اللي بتشوف.

ظنت هالة أنه كان يبتسم وهو يقول تلك العبارة.

صمت لوهلة، وصوته انخفض كأنه يحدث نفسه.

- يمكن الروح مش بتموت خالص... يمكن بس بتغير شكلها، بس الأكيد إن في أرواح، مهما حاولت تختفي، بتفضل جوه الناس اللي حبتهم أو ظلمتهم. ساعات بتعيش في صمت وساعات بتعلن عن وجودها

ارتعشت الإضاءة في القهوة وانطفأ التلفاز المعلق على الحائط، ساد الصمت لحظات، ثم عاد صوت الملاعق يعلو من جديد، لكنّ عيني يوسف لامعت بضوء أزرق، لم يكن انعكاساً لأي ضوء من الخارج، ما جعل الاثنين يبدوان أقل اطمئنانًا.

سكت الثلاثة قليلًا. إلى أن قطع يوسف الصمت وهو ينهي فنجانه،

- الروح يا جماعة... مش دايمًا طيبة، ومش دايمًا شريرة. بس أوقات... بتقرر تعيش فينا، غصب عنّا.

نفث دخان سيجارته نحو المرآة، للحظة ظن سعيد أن الانعكاس هو الذي ابتسم له، لا يوسف الذي نهض ببطء وهو يلتقط الملف قبل أن يغادر القهوة، بخطوات ثابتة، تاركًا خلفه الدخان يتشكل كظل، وصديقيه في صمت ثقيل بين رائحة البن ودخان السجائر، لا يجرؤ أي منهما على الحديث عما سمع..

— ✦ —

حواس خارقة

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم.(07)
الزمان 20 يناير 2016

كان الضوء في الغرفة ساطعًا على نحوٍ مزعج، أبيض قاس يخترق العين، حتى لو كانت مغمضة.

تأملت الطبيب الواقف أمامي ذا الملامح الجامدة والعينين اللتين تخفيان تعبًا قديمًا.

كان يرتدي بدلة كحلية أنيقة، قميصا أبيض، وربطة عنق رمادية، تفوح منه رائحة تبغ ثقيلة تمتزج بعطر نسائي خافت.

وللحظة، لمحت خيطًا ذهبيا يلمع من وراء كوفيته سلسلة حريمي رفيعة.

ألح على هذا السؤال، لماذا يرتدي طبيب في مصحة عقلية سلسلة نسائية؟

سؤال عابر، لكنه علق في ذهني كما يعلق الخيط في المسمار.

اقترب الطبيب أكثر، وضع سماعته على صدري، ثم رفع جفني ليفحص عيني بضوء صغير،
للحظة شعرت أني أرى أكثر مما يفترض أن أراه. كل تفصيلة في

الغرفة صارت واضحة، كما لو كنت أرى بعدسة مكبرة؛
الأجهزة، لون الطلاء المتشقق،
حتى العقرب المتوقف في ساعة يد الطبيب
قال الطبيب بنبرة مهنية
- سيف، أنت سامعني؟
رفعت رأسي قليلًا، لكن قبل أن أنطق، أحسست ببرودة مفاجئة في الهواء.

حركت عيني إلى الزاوية اليمنى من الغرفة، وهناك كانت تقف امرأة شاحبة الملامح، ترتدي قميصاً أبيض فضفاضاً من قمصان المستشفى، قدماها الحافيتان لا تكاد تلامسان الأرض، وشعرها الطويل منسدل على كتفيها.

ما أن رأتني أنظر لها حتى أقتربت من رأسي،
مالت ونظرت بعيناها الواسعتان في عيني بدهشة، وهمست لي

- إنت شايفني؟

حين اقتربت مني وصل الى أنفي نفس العطر الذي يضعه د. فؤاد، ورأيت نفس السلسة، حاولت الابتسام، وقلت ببرود بنفس الهمس

- أيوه شايفك...

كان دكتور فؤاد لازال يدون بعض الاملاحظات وهو يراقب شاشات الأجهزة حين، اقتربت هي خطوة حتى صار الهواء من حولي أبرد، فسألتها

- بس إنت مين؟

وقالت بصوت لا يخلو من البراءة لكنه أقرب للدمعة وهي تشير له

- أنا نادية... مرات دكتور فؤاد.

ثم أكملت وهي تقترب منه دون خطوات وكأنها تنساب فوق الأرض

- فؤش حبيبي ... دايماً مشغول، مبقاش بيقعد معايا زي زمان، ومش عايز يسمعني

لم أكد ألتقط أنفاسي من غرابة ما أرى،
حتى سمعت د. فؤاد يقول من خلفي بنبرة منزعجة

- إيه اللي بتقوله يا سيف؟ انت بتكلم مين؟

ثم أعاد رفع جفني وكاد يضع المصباح الصغير داخل عيني، فأجابته بنبرة هادئة فيها سخرية خفيفة، وبصوت واضح.

- حضرتك لو تطفي النور ده، وتبعد شوية... هاشوفك أحسن يا دكتور فؤاد، ولا أقولك يا فؤش؟

تجمد الطبيب، وتراجع خطوة إلى الوراء، كأن الكلمة الأخيرة لسعت ذاكرته.

- عرفت اسمي إزاي؟

أشارت بذقني ناحية نادية الواقفة إلى جواره وقالت

- نادية هي اللي قالت لي.

أدار الطبيب رأسه بسرعة حول الغرفة... لكنه لم يراها.

عيناه تضيقان في ارتباك، وصوته ينخفض

- نادية مين دي اللي بتتكلم عنها؟

كانت لا تزال واقفة بجانبه، نظرت له وعلى وجهها ابتسامة.

قلت وأنا أنظر نحوها.

- نادية اللي انت حاطط من برفانها، ولابس السلسلة بتاعتها.

شدّ الطبيب كوفيته تلقائيًا كأنه يحاول إخفاء شيء ما، ثم التفت يبحث عن تفسير.

لكن يوسف واصل كلامه بنبرة خالية من الخوف

- على فكرة، هي لسه بتحبك... بس زعلانة منك.

ابتلع الطبيب ريقه بصعوبة، ولم يقل شيئًا. خرج من الغرفة بخطواتٍ سريعة، وأغلق الباب خلفه بعنف. ظل يوسف يراقب الباب المغلق، ويسمع في ذهنه بوضوح صوت مفاتيحه المعدنية، تهتز مع خطواته المسرعة التي تنهب الأرض في عُجالة.

ابتسمت نادية لحظة قبل أن تتلاشى صورتها في فراغ الغرفة، اختفت كما لو كانت وهم.

مد يوسف جسده على السرير الحديدي، نظَر إلى الحزامين الجلد

على جانبيه، وإلى جهاز المراقبة الذي تتقافز خطوطه بألوانٍ لا معنى لها. فكر يوسف هل أنا حي فعلا؟ أم مجرد وعي عالق في جسد ميت؟

لم يخف. بل شعر بنوعٍ من الطمأنينة الغريبة، قوة في الإدراك، قدرة على ربط الاحداث، والاستنتاج وضوح في الرؤية لم يعرفه من قبل وأخيرا رؤية الأشباح. ثم أغمض عينيه، تاركًا الضوء يبتلع كل شيء

— ✦ —

قطع فؤاد الممر المؤدي إلى الغرفة (04) كان يحرك قدميه الثقيلة كقطع من الفولاذ الباردِ، كان يسمع دقات قلبه، تدق كالطبول، الإضاءة البيضاء في الممر ترتعش وتومض كأنها تتنفس ببطءٍ مرهق.

وقف الدكتور فؤاد أمام الباب المعدني الصامت، يمرر بطاقة الدخول بيد مرتعشة.

صدر عن الباب صوت ميكانيكي خافت، وانفتح ببطء كما لو أنه يتردد في السماح له بالدخول.

الهواء في الداخل كان مختلفًا... أثقل، أبطأ، كأن الغرفة تخزن أنفاسها منذ عامين.

على السرير، كانت نادية راقدة في هدوء أوجع قلبه. وجهها هادئ كمن يغط في حلم بلا زمن، شعرها الأسود ينساب على الوسادة كظل من حياة لم تكتمل.

جلس فؤاد إلى جوارها، مد يده بحذر ليلامس أصابعها الباردة، وقال بصوت أقرب للاعتراف

- سنتين وأنا فاكر إني هارجعك بالعقل والعلم...
  بس يمكن اللي بعمله بيبعدك عني أكتر

ارتعش الضوء في الغرفة مرتين، واهتزّ مؤشر الجهاز على نحوٍ خفيف.

كأن جسدها سمع كلماته.

خفض رأسه، صوته اختنق بين الحروف

- أنت أول تجاربي... أول محاولة أعدي بيها حدود الوعي.
  كنتِ بتقوليلي ماينفعش تلعب بعقول الناس يا فؤاد.
  ساعتها ضحكت وقلتلك العلم ملهوش قلب...
  لكن، أنتي كنتي الصح.

رفع رأسه ببطء، ينظر إلى وجهها الشاحب، تذكّر آخر مرة كانت فيها حيّة حقًا، حين وقفت أمامه في معمله الصغير تصرخ من بين أسلاك الأجهزة

- مش كل وجع بيتحل بالصدمات يا فؤاد!

ثم الصمت... ثم السقوط... منذ تلك اللحظة، ظل جسدها هنا،

وروحها تائهة بين نبضة لم تكتمل وصرخة لم تُسمع.

مد يده نحو لوحة التحكم بجانب السرير، أضاء الشاشة، ظهر أمامه ملفها الطبي.

الاسم: نادية حسن الجبالي

الحالة: انفصال وعي كلي – شبه غيبوبة

التاريخ :منذ 732 يومًا

ضغط على مفتاح التسجيل، صوته خرج مترددًا كاعتراف متأخر مذكرة رقم 41 – نادية.

- مازالت العلامات الحيوية مستقرة.

لكن النشاط الكهربي للدماغ ثابت على مستوى واحد منذ بداية التجربة، كأنها اختارت البقاء في مكانٍ بين الحياة والعدم.

توقف قليلًا، نظر نحوها بعينين دامعتين انحنى يقبل رأسها وقال بصوت منكسر

- بس النهارده...وكأني سمعت صوتك في أوضة تانية.

سيف قال كلامك بالحرف.

إزاي؟ إزاي تكوني هناك وهنا في نفس الوقت؟

ارتعش الضوء فجأة، وانبعثت من الشاشة خطوط متقطعة، ارتفع المؤشر للحظة ثم عاد إلى ثباته.

اقترب من أذنها، همس وهو يمسك كفها

- ارجعي لي... مرة واحدة بس، علشان أفهم أنا وصلت لفين.

لكنها لم تتحرك.

فقط، تحركت خصلة من شعرها بفعل تيار هوائي خافت، كأن أحدًا مرّ بجوارهما للتو.

رفع فؤاد رأسه، نظر حوله، لم يكن هناك أحد.

من مكبر الصوت الصغير في السقف، انبعثت ذبذبة ضعيفة جدًا صوتٌ نسائيّ خافت، كأنه صدى يأتي من عمق الماء

- مش كل روح تقدر ترجع...

تجمّد فؤاد مكانه، عيونه تتسع.

التفت نحو الشاشة

النبض ارتفع فجأة لثلاث ثوان، ثم عاد إلى الخط المستقيم.

ظل جالسا جوارها لعلها تعاود الحديث، واضعا رأسه بين كفّيه، يهمس كمن يكلّم نفسه

- وحشتيني يا نادية

لكنها لم تجيب.

خارج الغرفة، في الممر البعيد، كانت الكاميرا تسجل لحظةً لم يرها أحد.

ظل امرأة يخرج ببطء من الغرفة، ليس على الأرض، ولكن ينساب على الجدران قبل أن يتلاشى مع ضوء الممر

— ✦ —

كان دكتور فؤاد يلهث عندما عاد لغرفة رقم 07 وقف دقيقة وكأنه

يخشى ما سيواجهه بالداخل، وفي تردد فتح باب الغرفة بهدوء، كان الضوء الأبيض الساطع يجعل المكان أشبه بمسرحٍ خال بعد انتهاء العرض.

كان سيف مستلقيا على السرير، وصوت الأجهزة ينبض بإيقاعٍ بطيء يشبه دقات قلب معدني،

تقدم د. فؤاد خطوتين وهو يربت بيده على مقبض الباب المفتوح، لا يرد أن يتركه، وكأنه يلتمس فيه الأمان، ثم قال بنبرة هادئة

- سيف... كنت عايز أتكلم معاك شوية.

لم يتحرك سيف.

اقترب د. فؤاد أكثر، وضع ظهر يده على رأسه ثم خبط على وجنتيه بخفة، وصوته يزداد حدة

- سيف، كلّمني... أنا عارف إنك سامعني.

كان جسده بارد كلوح الثلج، والصمت ظل يخيّم على الغرفة.

استدار يائسا ليغادر، وفجأة جاءه صوت حاد واضح من خلفه.

- يعني مش كفاية سبتني وخرجت وأنا بكلمك؟

تجمد فؤاد مكانه. التفت ببطء، وعلى وجهه ملامح ارتباك لم يعرفها من قبل.

كان سيف جالسًا على السرير، عيناه مفتوحتان، وملامحه تحمل يقظة لا تنتمي لمن خرج توا من غيبوبة.

قال فؤاد محاولا التماسك، وأخفاء خوفه الواضح على عيناه

- أنت قمت قعدت أزاي؟

ومد فؤاد يديه بخوف، مشيرا له أن ينام

— ✦ —

حاولت أن أجعله يشعر بالأمان فقلت له

- ماتخافش مني يا دكتور.

تنفّس فؤاد ببطء محاولًا استعادة رباطة جأشه، ثم جلس على الكرسي أمام السرير

- أنا مش خايف يا سيف... بس اتفاجئت إنك قاعد،

أجابته بهدوء

- البركة في الأدوية بتاعتك، بس أنا عايز أقولك حاجة مهمة ...أنا مش سيف، أنا يوسف

- لكن أوراق التسجيل بتقول إنك سيف عبد الله.

- أيوه فعلاً ده جسم سيف، لكن أنا روح يوسف.

جلس فؤاد في صمتٍ متأمل، ثم قال بحذر

- يعني إنت شايف إنك روح؟
- أيوه أنا روح...

لكن مفيش حد بيجيب سيرتي خالص. لا بابا، ولا ماما، كأني ماكنتش موجود.

طيب لو أنا ميت... جسمي راح فين بعد الحادثة؟ ولو عايش... أنا ليه هنا؟

رفع فؤاد حاجبيه في دهشة ثم سأله متحيرا

- فاكر إيه عن نفسك يا يوسف؟
- الغريب إني مش فاكر أي حاجة، غير إني كنت سايق العربية، وسيف كان قاعد جنبي، بعدها... شفت ضوء قوي جدا وكل حاجة أختفت.

مش فاكر أي حاجة قبلها بس أنا متأكد إني يوسف مش سيف، زي ما أنا متأكد أن ده جسمه هو.

مد فؤاد يده على كتفه وقال بلطف.

- إهدى شوية، انت بتتكلم معايا أهو، وبتنفس وبتفكر.

احكيلي أكتر وأنا أوعدك إني هاسعدك تفهم.

كانت نادية قد عادت لتقف بجانبي، مالت وقالت بهدوء يشبه الهمس.

- أحنا خلاص بقينا أصحاب. عايزة منك طلب صغير، ممكن تساعدني؟

لم أتحرك، فقط رمشت بعيني مرتين، في إشارة أني أوافق ابتسمت ابتسامةً باهتة وقالت

- فؤاد مش بيسمعني، حاولت كتير، معرفتش ... ممكن تبلغه حاجة،

قوله بس إني مش زعلانة منه، وإنه مش لوحده سبب اللي

حصلي، فاهمني؟
قوله كمان إني بحبه ... لسه بحبه، وعارفه قد إيه هو بيتعذب علشاني.

هززت رأسي موافقا، وهمست

- حاضر، هبلغه.

رفع فؤاد نظارته بعصبية،

- يا ابني ركز معايا أنا عايز أساعدك.

كنت أتابعها وهي تتحرك بخفة حوله، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت بثقة،

- بس ممكن تخليني أساعدك أنا الأول يا دكتور؟

نظر لي د. فؤاد وعيناه تتسعان في ذهول

- تساعدني؟ ازاي يعني؟

رفعت رأسي، وبدأت أنقل له كلامها كما طلبت مني.

- مش عايز تعرف نادية كانت عايزة تقولّك إيه يا فؤش؟

ارتجف فؤاد،

- قالت لك إيه؟

- بتقولك إنها مش زعلانة، وإنك مش أنت لوحدك السبب في اللي حصل، وإنها بتحبك... لسه بتحبك.

صمتت الغرفة، وسادها صوت نبضات الاجهزة من جديد.

تجمّد فؤاد في مكانه لحظة، قبل ان ينفجر بغضب،

- أنت ازاي عرفت ناديه؟ ... شايفها ولا سامعها؟

وبدأ نظره يبحث عنها في أركان الغرفة ويصرخ

- يا نادية أنت موجودة هنا؟

ارتعشت الإضاءة، فجسى على ركبتيه وهو يقول

- سمحيني أنا كنت عايزك تبقي أحسن،
أنا كنت بعالجك يا حبيبتي
ثم وقف ومسك يدي وقال مترجيا
- قولها ترجع، ... خليها ترجع بس ومش هاعمل لها جلسات تاني، أن عايزها زي ما كانت... أنا عايز أسمعها، عايزها تسامحني، قولها كده
تغيرت ملامحي، عندما رأيتها تغضب لأول مره،
أرتعش ضوء الغرفة عدة مرات وهي تقول
- أنا سمعاك يا فؤش، بس مش كل أخطائنا ممكن تتمحي. أنا عايز أمشي .سيبني أمشي... قوله يا يوسف، لو خلاني أمشي، هارتاح وهاسامحه.
رددت الكلام خلفها دون تفكير
- هي سمعاك دلوقتي وموجودة دلوقتي هنا معاك، بس هي عايزه تمشي، بتقولك لو خلتها تمشي هتسامحك يا فؤش.
لم أكد أكمل جملتي الأخيرة حتى مسكني د. فؤاد من قميصي بقوة، يهزني بعصبيةٍ غير مألوفة، وصوته يتهدّج ما بين الألم والغضب
- تمشي فين؟ ... إزاي أسيبها تمشي.
نادية لازم ترجع، مستحيل هي تكون قالت كده،
مين اللي قالك تقول لي الكلام ده؟
حاولت الدفاع عن نفسي وأنا اتنفس بصعوبة
- أنا... أنا ماعملتش حاجة! هي اللي قالتلي أقولك كده!
لكن فؤاد لم يسمع، كان الغضب يعميه.
في تلك اللحظة، بدأت رؤيتي تبهت، وصار الصوت بعيدًا.
كل شيء من حولي صار ضبابًا رماديًا،

اختفى صوت فؤاد، واختفت نادية، ولم يبقَ سوى ظلال وضوء خافت ينساب من سقف الغرفة، تردد صوتاً بداخلي هامسًا

- أنت ليه دايماً بتدفع تمن أنك عايز تساعدهم؟

انخفضت الإضاءة تدريجيا، وتحول المشهد كله إلى ظلال متقطعة.

سمعت صوت غلق الباب، وعاد الصمت كما كان...

لكن قبل لحظات، وعلى شاشة المراقبة حيث لا يجلس أحد، كانت صورة نادية واضحة، وهي تقف عند طرف السرير وتنظر إلى فؤاد وهو يغادر الغرفة، بابتسامةٍ حزينة.

— ✦ —

بارانورمال

المكان مستشفى د. فؤاد – مكتب د. فؤاد
الزمان 21 يناير 2016

كان الصباح ثقيلاً داخل أروقة المستشفى.

ضوء النهار ينكسر عبر الزجاج السميك للنوافذ، فيصير باهتًا كأنه من عالمٍ آخر.

جلس الدكتور فؤاد الجبالي خلف مكتبه العريض، سيجار مطفأ بين أصابعه، وعيناه تحدّقان في شاشة اللابتوب أمامه.

إلى جواره جلست آمال تحاول قراءة ملامحه

- كنت عايز تقول لي إيه يا دكتور؟ شكلك مش طبيعي من امبارح.

كان فؤاد قد أعد تشغيل الفيديو عدة مرات، تنهد في ضيق، قبل أن يوجه شاشة اللابتوب نحوها

- بصي هنا. شايفة الوقت ده؟

نظرت إلى الشاشة بتركيز، ثم قالت بفضول

- أيوه طبعا لما كنت بكلم حضرتك عن حالة سيف، إيه اللي حصل خلاك متضايق بالشكل ده

هز فؤاد رأسه، وعيناه ما زالت ثابتة تراقب الشاشة

- تمام. بعد ما خرجتي من الأوضة، رجعت اكشف عليه تاني. النبض زي ما هو، ضغط الدم ثابت، لكن الغريب إن عينه بدأت تتحرك بسرعة، استجابة خفيفة للضوء، وبعدها..

أوقف الفيديو للحظة، ثم أعاده إلى الوراء ببطء، يحدق في سقف الغرفة. أشعل سيجارته بعصبية وأضاف بصوت منخفض

- ومع كده اتكلم بصوت طبيعي، وناداني باسمي.
رفعت آمال حاجبيها في دهشة
- يعني... قالك يا دكتور فؤاد؟
أجابها بهدوء مرعب
- لأ... قال لي يا فؤش.

قام فؤاد بتسريع الفيديو.. ظهر وهو يخرج من الغرفة، ثم يعود مره أخرة بعد دقائق وأخير قام بتجميد الصورة على لحظة يظهر فيها سيف جالسا فجأة على السرير. أثناء خروج د. فؤاد بعينين مفتوحتين تمامًا، ونظرةٍ حادة نحو الكاميرا مباشرة
اتسعت عينا آمال أقتربت تحدق في الصورة وهي تهمس
- إيه ده... ده كأنه فاق فجأة، إزاي؟
قال فؤاد وهو يشير بيده.
- مش بس كده، بصي كويس... شوفتي إزاي قاعد بمنتهى الاتزان؟
انتبهت آمال أنها قد أقتربت من الشاشة أكثر مما ينبغي فعادت لتجلس على الكرسي وهي تقول بصوت العقل الرافض لما يراه.
- ده مستحيل فسيولوجيا في حالة زي دي. كل الأجهزة والتحاليل، بتقول إنه في غيبوبة تامة. وغياب شبه كامل للنشاط العصبي
- في حاجات العلم مش بيقدر يفسرها بالاجهزة والقياس
- حضرتك تقصد أنها، مش غيبوبة؟!

ابتسم فؤاد ابتسامة باردة وهو يزفر دخان السيجارة
- بالضبط. الحالة دي مش مجرد غيبوبة.
دي ...تجاوز بين العالمين، بين الوعي واللاوعي، بين الروح والجسد. حالة تتخطى حدود علم النفس كله.

ساد الصمت لثوانٍ طويلة، لم يسمع فيها سوى، صوت بندول ساعة الحائط.

كان الفضول يقتلها تريد معرفة ماذا حدث بينهم، قالت آمال وهي تحاول التمسك بالرصانه العلميه

- هو كان بيكلم حضرتك؟، أتكلم قال إيه؟
- كلمني عن نادية. كان بيبلغني رسالة منها
- نادية! مستحيل ... طيب هو يعرفها منين؟
- عمرهم ما اتقابلوا في العالم اللي نعرفه، لكن ممكن اتقابلوا في عالم تاني
- يعني حضرتك شايف إن ده نوع من الاستشعار فوق الحسي؟ إدراك استرجاعي مثلاً؟

التفت إلى آمال وبصوتٍ حازم

- ده اللي هنحاول نفهمه مع بعض في الأيام الجاية.

المهم هنفضل ماشين على نفس البروتوكول والجرعات، أي تطور في الحالة بلغيني في أي وقت

— ✦ —

الزيارة الاولى

المكان مستشفى د. فؤاد – مكتب د. فؤاد
الزمان 22 يناير 2016

فتحت دكتورة آمال الباب بهدوء،

- صباح الخير يا دكتور فؤاد.

رد عليها من غير ما يرفع عينه من الكتاب

- صباح النور يا آمال.

تقدمت آمال خطوتين لداخل الغرفة وقالت بصوت خفيض

- أنا معايا أستاذ عبد الله زهران، والد سيف.

رفع فؤاد راسه بهدوء وقفّل الكتاب، وقال

- أهلاً، خليه يتفضل.

دخل عبد الله بخطوات بطيئة، صافح دكتور فؤاد، وجلس بجانب المكتب. كان التوتر واضحاً عليه عندما قال.

- الدكتورة قالتلي إن حضرتك طالبني ضروري... يا رب يكون في جديد في حالة سيف.
- تأمر بحاجة يا دكتور؟

قالتها آمال وهي تهم بالانصراف، لتترك لهم حرية الحديث، بعد نظرة خاطفة من عين فؤاد

- أيوه، من فضلك ابعتيلي ملف حالة سيف.
- حاضر يا دكتور، هيكون عند حضرتك حالا.

ما إن انغلق الباب، حتى نظر له فؤاد من فوق نظارته وسأله بنبرة هادية

- قبل ما نتكلم عن سيف، عايز أعرف عنك شوية... شغلك إيه؟ وظروفك عاملة إزاي؟ الحالة المادية..
- قاطعه عبد الله بعصبية، وهو يقوم من مكانه.

- حضرتك قصدك إيه؟! أنا جاي أسمع أخبارعن ابني، مش أجاوب على أسئلة بالشكل ده! وبعدين أنا دافع مبلغ محترم جدًا تحت حساب العلاج.

فؤاد رفع نظارته بيده وقال بابتسامة خفيفة.

- اهدى يا عبد الله بيه، أنا بس بحاول أفهم الصورة كاملة. وبعدين المستشفى دي 7 نجوم، طبيعي يعني متبقاش أول اختيار لحالة زي حالة ابنك... غيبوبة.

حرك كتفيه ومط شفته السفلى قبل ان يكمل

- يعني مش إدمان ولا اكتئاب.

نقرات على الباب، دخلت بعدها بنت معها ملف، تناوله د. فؤاد، دون أن ينظر إليها.

- شوفي الباشا يشرب إيه... ولا أجيبلك ليمون يروق الدم؟
- لأ شكرا مش هشرب حاجة.
- هتشرب قهوة معايا... القعدة هتطول شوية.
- خلاص، قهوة مظبوط.

خرجت البنت، وساد صمت بسيط قبل أن يشعل د. فؤاد سيجاره الفاخر وينفث سحابة دخان ثقيلة. قال بعدها وهو ينظر لعبد الله.

- أنا شفت سيف كذا مرة، وبقيت متابعه بنفسي. الحالة دي بقت مسئوليتي.
- بس قول لي يا عبد الله بيه... مستعد تمشي في علاجه لحد فين؟

عبد الله قال بصدق ودون لحظة تردد

- لحد آخر الدنيا يا دكتور، حتى لو اضطرّيت أسافر بيه بره أو أجيب له دكاترة من أي بلد، المهم يعيش.

- تمام... ما تقلقش، مش هنحتاج نسافر، بس سؤال صغير مين اللي دلّك على المستشفى الصغننة بتاعتي؟ خصوصا أحنا في مكان منعزل وأنا مبعملش دعاية.
- دكتور مراد الحفناوي هو اللي أنقذ سيف بعد الحادثة، وهو اللي...

هز فؤاد رأسه ورفع حاجبه وابتسم لأول مرة.

- مراااد ... يا حبيبي، أهو كده فهمت.

عبد الله صوته بدأ يرتجف وهو بيحاول يخفي تأثره

- بعد كام أسبوع مدير المستشفى القديمة قال لي إن سيف عنده سكتة دماغية ومفيش أمل يتحسن قريب، مع إنه والله كان بيتكلم.

هز فؤاد رأسه، فأكمل عبد الله بصوت أكثر تماسك وهو ينهي حواره

- المهم، كلمت دكتور مراد وسألته عن مكان يكون متخصص أكتر لحالة زي حالته وهو أداني عنوان المستشفى، وقال لي إن حضرتك الوحيد اللي ممكن تساعده.

فؤاد قام من ورا المكتب وقعد جواره، وربّت على كتفه بلُطف قبل أن يقول.

- أنا مصدّقك. وبالمناسبة، في تطور إيجابي في حالت سيف.

عبد الله اتنفض مكانه

- بجد يا دكتور؟ اتكلم؟ فاق؟!
- سيف فعلاً أتكلم معايا. بس قبل ما أقولك على اللي حصل، لازم تكون واثق ومتأكد ان أي حاجة هاعملها هاتكون في سبيل علاجه، وعايز منك وعد.
- أي حاجة في مصلحته، أنا موافق من غير ما أعرف.

- كويس. الوعد إنك ما تحاولش تخرجه من هنا مهما حصل. حتى لو بان عليه تحسن، مش هيخرج غير لما أنا أقول. وكمان هقلل الزيارات شوية... عشان أي صدمة دلوقتي ممكن ترجّعه لورا.
- أنا موافق يا دكتور وواثق في حضرتك.

رجع فؤاد لمكتبه وفتح اللابتوب. قال وهو يحرك الشاشة نحو عبد الله

- عظيم إتفقنا، تعالى شوف بنفسك.

قرب عبد الله وبص في الشاشة، وبعد ثواني قال وهو بيشهق.

- ده قام! وقعد! ورجع نام تاني! يعني فاق يا دكتور؟!

فؤاد قفّل اللابتوب بهدوء، وفتح الملف بتاع حالة يوسف قلب كام ورقة وقال

- الأشعة والتحاليل كلها بتأكد إنه لسه في غيبوبة. مفيش أي نشاط في المخ، ولا استجابة عصبية. اللي شُفته ده مش وعي... دي حركات لا إرادية.

عبد الله بص له باستغراب

- مش مهم التحاليل، المهم إنه اتحرك وكل ده ممكن يتعالج يا دكتور صح، المهم إنه فاق
- عبد الله بيه، الموضوع مش زي ما أنت فاهم، سيف لسه ما فاقش، واللي حصل ده مش طبيعي. الجلوس بالاتزان ده عملية معقدة جدًا. كمان ده اتكلم معايا بشكل طبيعي جدا وده مش ممكن يحصل لحد وظائف جسم تقريبا شبه متوقفة.
- قصدك إيه؟

فؤاد بص له بعمق وقال بنبرة غامضة

- أقصد إنك لما تبقى نايم عشرة اتناشر ساعة، هتقوم تلاقي صوتك تخين وفي صعوبة في الكلام، ولو واحد غاب عن الوعي سعتين تلاته بيبقى دايخ ومحتاج حد يساعده علشان يقعد.

قال عبد الله بعصبية

- كل ده مش مهم، أنا عايز أشوف سيف دلوقتي حالاً، عايز أتكلم معاه، وأسمع صوته
- هتشوفه، بس هو للأسف رجع تاني في الغيبوبة.
- مستحيل! أنا شُفته بيتكلم معاك! ممكن يكون نايم، مش غيبوبة

باغته بسؤال غير متوقع

- عبد الله بيه... هو إيه اللي حصل ليوسف؟

صوت عبد الله اتكسر وهو بيرد بإستغراب.

- يوسف؟ مين قالك عليه؟
- يوسف نفسه كلمني... قال لي إنه كان سايق العربية وسيف كان معاه، وزعلان منك إنك ما سألتش عليه.

عبد الله دمعت عينه وهو بيقول.

- سيف كان لوحده في العربية وقت الحادثة.
- بس أنا عارف إنهم توأم، ممكن يكون اللي مات سيف ويوسـ...
- لأ يا دكتور! يوسف مات من سنين!

— ✦ —

حادثة البحر

رفع فؤاد نظارته ببطء وقال بدهشة

- يوسف مات؟! مستحيل... ده أنا اتكلمت معاه بنفسي!
- اللي كلّمك مش يوسف. الأموات ما بيتكلموش يا دكتور.

سكت فؤاد لحظة، بعدها قال بنبرة هادئة

- ممكن تحكيلي عن يوسف؟ إزاي مات بالضبط؟
- مش فاهم إيه علاقة موت يوسف بحالة سيف!
- أسف جدا لو هفكرك بحاجات تخليك تجدد الحزن، لكن صدقني المعلومات دي ممكن تساعدني في علاج سيف.

جلس عبد الله ونظر بين قدميه، تنهد وخرج صوته مبحوحًا

- كانوا لسه مخلصين تالتة إعدادي. أخدتهم أنا وأمهم لمطروح، كنا مبسوطين جدًا. في يوم رحنا شاطئ اسمه (الأبيض)، شافوا عيال في سنهم راكبين الموتوسيكل بتاع البحر ده،
- أيوه عارفه الجيت سكي
- فضلوا يزنّوا عليا عوزين يلعبوا بيه، رفضت في الأول، بس مع الإلحاح وافقت. لعبو بيه شوية قدمنا كنت واقف انا ومامتهم وهما بيلعبوا قدمنا شوية، كانوا فرحانين قوي، أطمنت عليهم أخدت سناء، ورجعنا قعدنا تحت شمسيتنا.

تنهد ترقرقت دموعه قبل أن يكمل،

- بعد ربع ساعة سمعنا صفارات... وصوت بيصرخ "غريق! غريق!".

جرينا كلنا، لقينا شباب شايلين واحد من ولادي وحاطوه على الرمل قدامي، كان جسمه أزرق ومابيتحركش

فؤاد ربط على كتفه وكأنه يحاول مسح الحزن عنه.

- تعيش وتفتكر، وطبعا مكانش فيه مسعفين؟ وملحقتوش تودوه المستشفى. طيب وسيف كان فين؟

أجهش عبد الله في البكاء وأكمل

- الناس قالوا الاتنين وقعوا في البحر، بس أنقذوا واحد، ومعرفوش يلاقوا التاني... البحر بلعه.

نزلت أدور عليه بنفسي زي المجنون، الشباب رجعوني بالعافية.

رجعت لقيت شاب بيحاول يسعفوه، جريت بيه على المستشفى. فضل ثلاث أيام غايب عن الوعي... وفي الرابع، فاق. الحمد لله.

لمعت عين دكتور وقام برفع النظارة المنزلقة على انفة بسبابته، تغيرت نبرة صوته عندما قال.

- أو يمكن اللي فاق... ما كانش سيف.

— ✦ —

في الممر الطويل المؤدي لغرف المرضى الذي يمتلئ برائحة المطهر، كل شيء لامع أكثر من اللازم. الممرضات يتحركن بخطوات محسوبة في أحذية مطاطية، للحفاظ على الهدوء المميز للمستشفيات الخاصة. كان صدى خطوات عبد الله يختلط بأنين خافت يأتي من بعيد، كأنه من عالم آخر.

وأخيراً توقف أمام باب الغرفة رقم (7). وقبل أن يطرق. امتدت يدًا من الداخل وفتحت الباب برفق. كانت دكتورة آمال، قالت ووجهها يحمل ابتسامة

- اتفضل يا أستاذ عبد الله.

دخل عبد الله بخطوات ثقيلة. الغرفة هادئة جدًا، والضوء الأبيض الساطع يضيء كل اركان الغرفة

اقترب عبد الله، حتى وقف بجانب السرير حيث يرقد سيف، كان وجهه ساكن، لكن ملامحه قد تبدلت قليلاً، ربما من أثر الجرح في جبهته. جلس على الكرسي بجانب السرير، مد يده ولمس أصابع ابنه. كانت باردة كالعادة. تنهد عبد الله وهو يقول.

- الحمد لله... إنك بخير يا سيف.

لم يتحرك سيف، لكن رمش جفنه الأيسر ببطء.

عبد الله جذب الكرسي أقرب، وصوته ارتجف وهو يهمس

- سامعني يا سيف؟ أنا بابا... لو سامعني، حرك صباعك ده.

ضغط برفق على سبابته. مرت ثوان ثقيلة،

ثم تحرك الأصبع فعلا؛ حركة صغيرة، لكنها حقيقية.

شهق عبد الله كمن عادت له الحياة

- الحمد لله، يا رب!

ثم خرج صوت ضعيف، مبحوح، كأنه قادم من بئر عميق

- بابا...

تجمد عبد الله لحظة، ثم انهمرت دموعه من غير صوت.

- أيوه يا حبيبي، أنا هنا... الحمد لله إنك فقت.

فتح سيف عينيه ببطء، كانت نظراته مشوَّشة، بين الوعي والحلم. وقال بصوت متقطّع

- إيه... اللي حصل يا بابا، أنا مش فاكر حاجة؟

ابتسم عبد الله رغم ارتجاف شفتَيه، زادت ضغط قبضته على كف سيف

- أنت عملت حادثة يا سيف... بس الحمد لله ربنا نجّاك.

- سيف؟ ... أنا... يوسف يا بابا.

لحظة صمت طويلة مرّت بينهما، تجمّد عبد الله وكأن الوقت نفسه قد تجمّد. ربط على كف سيف بود يحاول أن يطمئن نفسه قبل أن يطمئنه، فمن المؤكد أنه لا زال يعاني من أثر الغيبوبة. ابتسم بجانب وجهة الأيمن وقال بود

- لأ يا حبيبي، إنت سيف... يوسف مات من زمان. افتكر كويس.
- لأ... أنا يوسف. أنا اللي كنت سايق العربية... وسيف كان جنبي.

سحب عبد الله يده من يد أبنه، ورفع رأسه بسرعة، عيناه تتسعان بالذهول

- بتقول إيه يا ابني؟!
- كنا راجعين البيت وأنا كنت سايق، حدّ خبط العربية من الجنب... دوست على الفرامل لكن ... فجأة كل حاجة أسود....

طرق الباب فجأة، فقطع يوسف حديثه.

- دخل الدكتور فؤاد بخطوات ثابتة، وجهه لا يحمل أي تعبير.
- إزيك يا عبد الله بيه؟
- أهلا يا دكتور، ابني فايق وبيتكلـ...!

قاطعه باقتضاب

- أنا عارف...

ثم اقترب من السرير، أضاء كشاف صغير وهو يفحص عيني سيف بنظرة دقيقة، ثم سأل بهدوء

- عامل إيه يا سيف؟

نظر له بثبات وقال

- أنا... يوسف. وانت عارف يا دكتور

رفع فؤاد حاجبه دون دهشة، وكأنه يتوقع الرد، وبصوت بارد لا يحمل أي عاطفة.

- تمام. طيب ممكن تحكيلي اللي حصل يا يوسف؟

عبد الله هتف منفعلاً

- لكن يا دكتور ده سيف مش يوسف.

نظر له فؤاد نظره اسكتته، ثم ابتسم نصف ابتسامة وقال وهو يتوقف على كل كلمة

- أنا ما بلعبش، ده شغلي، لازم أعرف هو شايف نفسه إزاي.

ثم التفت إلى المريض وسأله

- يوسف... فاكر آخر حاجة قبل الحادث؟
- كنا في العربية... كنا بنتكلم عن حاجة...
- عن إيه؟
- عن الرهان، والحكم، وعن الموت... مش قادر افتكر بالظبط.

ساد صمت ثقيل، كأن الكلمات أغلقت باب الغرفة على الجميع.

فؤاد رمق الشاشة بجانب عينه، خطوط رسم المخ تتسارع، ترسم نبضات غير منتظمة. همس محدثًا نفسه.

- الروح بتفكر قبل الجسد

ثم التفت إلى عبد الله وقال بنبرة واثقة

- أستاذ عبد الله، ممكن تسيبني معاه خمس دقايق؟
- بس يا دكتور...
- خمس دقايق بس.

خرج الأب مضطرًا، وقف خلف الزجاج يتابع سيف بعينين لا تطرف. وفي الداخل أغلق فؤاد المصباح الكبير واكتفى بشريط من الضوء الأبيض فوق السرير،

أخرج مسجّلًا صغيرًا من جيبه، ضغط زر التسجيل وقال

يتم تسجيل الجلسة رقم واحد الحالة (سيف ويوسف). بداية الانقسام المعرفي التام.

جلس على حافة السرير وبصوت يملأه الود

- كده أحسن علشان عينك ماتتعبش من الضوء، ولا إيه؟ ... أحكيلي بقى يا بطل إيه اللي حصل؟

الغرفة الآن شبه مظلمة، ضوء خافت يرسم ظلالاً على وجه سيف، كان هناك أسلاك رفيعة لجهاز رسم المخ تخرج من غطاء شبكي على رأسه، وعلى الشاشة كانت الخطوط متناغمة تتراقص بوتيرة واحدة.

وفي الخارج، كان عبد الله واقف، يحاول السمع دون جدوى، لا يعرف أن ابنه بدأ يحكي الحكاية من الأول، ... من جديد

- لما فُقت أول مرة، قلت لي إنك يوسف

كان فؤاد ينتظر الإجابة وهو يرمق الشاشة ويدون شيء ما في نوتته

- أيوه، أنا يوسف
- والدك بيقول أن يوسف مات! ...

أختنق صوت يوسف، وارتعشت الخطوط على شاشة الجهاز

- يمكن يكون صح... بس ليه أنا لسه موجود؟ وليه جوه جسم سيف؟
- يعني ده مش جسمك؟
- لأ ... أنا قولت لك إن ده جسم سيف.
- وفين سيف؟
- معرفش
- وإيه اللي خلاك تدخل جسم سيف؟

- مش عارف! بس كان فيه حلم غريب ... لأ مش حلم، حاجة غريبة حصلت
- أحكي بالتفصيل يا يوسف
- أنا كنت موجود في غرفة العمليات بعد الحدثة، شفت سيف كان نايم غرقان دم، وكان فيه دكاترة وبعدين حصلت صدمة كهربا خلتني فقدت الوعي
- وبعدين
- لما فقت كنت شايف بعين سيف، كنت محبوس جوه جسمه

كتب فؤاد ملاحظة سريعة في دَفتر صغير بعد أن نظر في شاشة جهاز رسم المخ وباغته بخبث يغلفه الهدوء

- فاكر حادثة البحر يا يوسف؟

تفاجأ يوسف بالسؤال. ورد باستغراب

- البحر؟ ... إيه حادثة البحر دي؟

نظر يوسف تجاه الحائط، عضّ شفتيه، اتسعت عيناه واغرورقت بالدموع، كان يحرك رأسه بالنفي كأنه يسمتع لشيء لا يريد تصديقه. حينها أكمل فؤاد ببرود،

- باباك قالي إن يوسف غرق وهو طفل... مات من سنين.

اهتزت الخطوط على الشاشة بجنون، ثم عاودت الهبوط.

تسارعت دقات قلب يوسف، وتلاحقت أنفاسه، عينه تدور في الغرفة بسرعة، يرفع يداه ليحمي بها وجهة من المجهول. وفجأة، صوته تغير، صار أعمق، أكتر خشونة، وكأنه يعاني ليخرج الحروف

- لأ ... سيف هو اللي مات.

صرخ فجأة وهو يمسك رأسه بيديه ويغمض عيناه بقوة، وعاد صوته لطبيعته وهو يقول.

- سيف هو اللي غرق واللي خرج من البحر كان يوسف.
تراجع فؤاد، واضعا يداه على حافة السرير المعدنية، عند قدمي سيف وقال بحدة،
- اهدى يا سيف، وخليك معايا.
- ما تقولوش سيف، سيف غرق، ومات من زمان.
تعلقت عينا د. فؤاد بالشاشة، موجتان تتحركان في اتجاهين متعاكسين، كانت القراءات مزدوجة، كأنهم عقلين بداخل نفس الرأس!
كتب ملاحظة جديدة بخط سريع. الحالة 07 احتمالية ازدواج وعي كامل.
لحظات وأصبح سيف يتنفس بهدوء، عينه مفتوحتان ونظره ثابت للسقف. قال فؤاد بنبرة أهدأ وأكثر حذرًا، بعد أن عاد إلى جانب السرير
- يوسف أو سيف... مش مهم، أهدى دلوقتي ولما تبقى أحسن ها...
قاطعه صوت حاد غاضب
- بقولك ماتقولش سيف ... انا يوسف.
ثم أكمل بصوت أجش
- أنا تعبان، عايز أرتاح
رفع فؤاد حاجبه، وأخذ نفسا طويلا، قرب جهاز التسجيل من فمه وبصوت خفيض
- ازدواج وعي كامل. صوتين في حالة نشط.
ضغط زر الإيقاف، وضع الجهاز في جيبه، ثم همس قبل أن يغادر
- هاسيبك ترتاح، بس لينا قعدة تاني مع بعض
قالها والتفت نحو الزجاج حيث كان عبد الله واقفاً يراقب

لوّح له مطمئنًا وهو يدوّن ملاحظة سريعة في دفتره، قبل أن يخرج له ثم قال بابتسامة باهتة بعد أن أغلق الباب خلفه.

- كله تمام، كله كويس.

سأله عبد الله بعينين تملأها الحيرة

- بس يا دكتور، ده بيقول أنه يوسف، هو ايه اللي حصل له؟
- لما أفهم أكثر هاطمنك، الحالة فزيائياً فيها تحسن، بس العقل ... لسه فيه حرب.
- حرب؟
- أيوه حرب... واحد دخل في الغيبوبة، ... ودلوقتي في اتنين رجعوا.

والاتنين بيحاولوا يسيطروا على الجسم، هنشوف النهاية، مين فيهم هيعيش ومين هيفضل هناك

ردد عبد الله في حيرة

- اتنين راجعوا؟ ... هيفضل هناك... أنا مش فاهم

تركه دكتور فؤاد في حيرته، وسار مبتعدًا، والضوء الأبيض الطويل يكسر ظله على الحائط، وكأنهم ظلّين يسيرو بجوار بعضهما فابتسم وتغيرت نبره صوته وهو يقول.

- أو يمكن يعيشوا نفس الحياة مع بعض

—✦—

كلاكيت 2 مرة

المكان شقة يوسف
الزمان أواخر 20 يناير 2022- السابعة صباحا

كان الضوء ينهش عينيّ قبل أن أفتح جفني، ضوء شديد البياض كأنه شمس ألقيت داخل الغرفة. وضعت كفي على عيني لأحتمي من الوهج، ظننت لوهلة أن "ندى" فتحت النافذة، لكن الواقع كان أغرب. الضوء كان يتسرب من كل شيء... الجدران، السقف،

الأرضية، الدولاب، وحتى السرير نفسه كان يشع
تراجعت ببطء، والنور يخف شيئا فشيئا حتى اختفى فجأة، ثم حلّ محلّه صوت المنبه الرتيب يخترق السكون.

سمعت صوت ندى، بعيدا، يملؤه النعاس

- قوم يا يوسف أصحى، وسكت المنبه ده!

أجبتها وأنا أمد يدي بحثا عن الهاتف الذي سقط على الأرض

- حاضر... حاضر!

لكن ما حدث بعدها لا يمكن تفسيره.

في أقل من ثانية وجدت نفسي واقفًا عند باب الغرفة، أحدّق نحو السرير. هناك كان جسد نائم... جسدي.

تجمدت، لا أصدق ما أرى. من هذا النائم؟ ومن أنا؟
ذاكرتي خاوية تمامًا، لا أملك شيئًا يربطني بما أراه. حاولت أن أستعيد شيئا، أي شيء... فلم أجد سوى الفراغ.

بدأت أتحرك بعرض الغرفة جيئة وذهابا، وشيء في داخلي يخبرني أنني لست جسدا، بل وعي قد أنتزع منه جسده فأصبح هائما، في مكانٍ لا يعرف له أصلًا.

التقط بصري مرآة على الجدار، اقتربت منها بحذر، كنت أظن أني

لن أرى شيئًا، لكن المفاجأة أن انعكاسي كان واضحًا، وجهي نفسه، ملامحي كما هي، كأن كل هذا طبيعي. ملامحي تبدلت قليلا ربما بفعل الزمن. اقتربت من الكومودينو، كانت هناك علبة دواء صغيرة، تناولتها، ولم تقع من يدي، كأنّ لي جسدًا فعلا. رفعتها نحو الضوء لأقرأ ما عليها، لكن الإضاءة كانت ضعيفة، فمددت يدي نحو مفتاح الكهرباء. ما إن ضغطته حتى غمرت الغرفة إضاءة قوية، قرأت الاسم بروليكسين. في اللحظة ذاتها سقطت العلبة من يدي على الأرض. انتصب جسد ندى من الفراش فزعة

- يوسف! إلحق... النور نور لوحده وفيه حاجة خبطت على الأرض!

يوسف، أو من يشغل جسدي، تمطى بكسل وقال

- يوه يا ندى... بطلي الخوف ده بقى!

صرخت

- يا يوسف أصحى شوف بعينك! والله شفت حد بيتحرك في الأوضة، والنور نور لوحده!

نهض يوسف وجذبها إلى حضنه محاولا تهدئتها.

- حبيبتي أنا نايم جنبك، أكيد حلمتي... وبعدين ممكن تكون الكهربا كانت قاطعة، ورجعت دلوقتي.

هدأت قليلًا، ثم قال لها بابتسامة كسولة

- ها، مش هتعمليلي فطار ولا إيه؟

خرجت من الغرفة، تبعها هو بعد لحظات، ثم عاد وأغلق الباب خلفه، وقف أمامي تماما، نظر في عيني وقال بصوت خافت فيه عتاب

- إنت مش ناوي تعقل بقى؟ ندى كده هتتجنن!

قلت بدهشة

- أنا؟!... إنت شايفني؟!

ابتسم ساخرا

- طبعا شايفك، مالك مش على بعضك كده؟ شفت عفريت؟
- إنت مين؟ أو أنا مين؟!

ضحك وقال

- إنت اللي بتسألني؟
- ما بسألش حد غيرك!
- يوه، إنت نسيت تاني ولا إيه؟ بص يا ريس، إنت كنت يوسف! وأنا... مش مهم، مش هاتفهم، أنا... بحميك، بخليك تفضل عايش.

جاء صوت ندى من الخارج

- يلا يا يوسف، هتتأخر!

رد بسرعة

- حاضر يا روحي، جاي!

ثم التفت قال بصوت منخفض قبل أن يغادر بمكر يشبه اليقين

- لينا كلام تاني مع بعض... ده لو رجعت تاني.

وبينما خرج وأغلق الباب، سمعت في رأسي صوتا آخر، خافتا كأنه صدى لاسم قديم يعاد نطقه من الأعماق، وصوت أمي يتردد في داخلي

- يوسف... يا يوسف.
- نعم يا أمي أنا يوسف.

— ✦ —

بخط يوسف

المكان بيت عبد الله زهران
الزمان 22 يناير 2016

كان محملا بهم يثقل كاهله، عندما عاد الى المنزل، لا يدري ماذا يقول لها عن حالة سيف إن سألته، وحتما ستفعل.

دخل بهدوء لعله يجدها قد راحت في نوم، أو هكذا كان يمني نفسه، ان فعلت فلن يوقظها.

البيت خالياً وساكنا، إلا من صوت بكاء خافت يأتي من غرفة سيف، هي سناء إذا، قد عاودت الدخول لحجرته، رغم أنه منعها أكثر من مرة، ولكن قلب الأم، يتلمس وجود رائحة الابن الغائب في ملابسه وأغراضه.

دخل عبد الله وهو يجر قدميه في ثقل،

كانت تأن، وهي ممسكة بدفتر قديم، على غلافه الأزرق، كانت هناك صوره لسيف مع والديه، وأخرى صغيرة لطفلين متشابهين في الملامح. لا أحد يعرف من منهما هو سيف بالضبط.

ما أن رأته حتى مدت يدها بالدفتر وعلا صوتها بالبكاء

بص يا عبد الله شوف سيف كاتب إيه

- إيه اللي دخلك هنا تاني يا سناء؟ انا لسه جاي من عنده وبيتحسن والله وهيبقى زي الفل
- لأ يا عبد الله اللي في المستشفى ده مش سيف
- أنت بتقولي إيه أنت كمان...

مدت يدها وهي تفتح الدفتر على ملاحظة قد كتبها سيف بخط مهتز، على أوراقٍ الدفتر الصفراء، كتب كأنه يخاطب نفسه... أو من بقي منها.

- رغما عني كنت سيف. أعوامٍ كاملة، عشتُ في جسدي غريبًا.
الخوف كان يمنعني من البوح، من النوم، ومن الحياة.
وفي الصفحة المواجهة كتب بخط أوضح
لم أكن السبب في موتك يا سيف. كنا طفلين فقط، وكان البحر أكبر منّا. في ذلك اليوم، كنت تضحك وأنت تقفز فوق الموج بدراجتك وتسبقني.
حين رأيت أنا علامات حمراء بعيدة أشرت نحوها، وكما تعودنا أن نتنافس قلت لك.
- تراهني نتسابق لحد العلامة دي، والخسران ينفذ الحكم.
بدأنا معًا، كنت أسرع مني، وكنت بالكاد الحقك،
التفت لي وصوتك يعلو ضاحكا
- أنت الخسران يا يوسف، وهتنفذ الحكم.
لحظة واحدة وتغيّر بعدها كل شيء، موجة عالية، وانقلبت دراجتك، وصوتك غاب. ترددت للحظة، ثم دون تفكير، ثم قفزت خلفك، أتذكر أني كنت أصرخ باسمك والماء يملأ فمي. رأيتُك تغرق، ثم رأيتُ الظلام.

— ✦ —

توقف عبد الله عن القراءة وهز الدفتر ملوحا به أمام سناء، وعقله يرفض الإقتناع،
- كلام فارغ. تخاريف، ما إنتي عارفه ابنك يا سناء.
- لا يا عبد الله مش تخاريف... كمل قرايه.
أخذت منه الدفتر وقلبت له الأوراق وتوقفت عند فقرة أخرى، مكتوبة بخط مختلف. طفولي أكثر،
جلس عبد الله على حافة السرير وأكمل قراءة ما كتبه سيف

— ✦ —

حين أفقت، كنت في المستشفى. كانت الأنابيب في ذراعي، وصوات الأقدام في الممر.

لم يكن أحد بجواري.

لم أجد أبي ولا أمي، كنت أعاني بمفردي لساعات،

وعندما سألني الطبيب عن أسمي.

كذبت، كما كنت أفعل دائمًا حين أخاف. التمس في أسمك الأمان.

- اسمي سيف... سيف عبد الله،

ما أسهلها من كذبة، فطالما كانت تنقذني.

وقد فعلتها سابقا، في موقف ابسط من هذا.

ما إن خرج الطبيب، حتى وجدتك أنت، كنت تقف في ركن الغرفة،

ملابسك ما زالت مبللة، وقد تبدل لونك، أصبح جلدك أزرق كلون البحر. لوهله شكلك أرعبني، لكنك كنت أخي. ابتسمت وقلت لي حينها.

- أخيراً فقت، الحمد لله، كنت قلقان عليك، أنت عارف أني قدرت أنقذك من الموت بمعجزة، كنت هاتغرق معايا، بس أنا عرفت أطلعك

بكيت وأنا أتذكر ما حدث وقلت لك

- أنا شوفتك بتغرق قدامي. هو أنت ميت يا سيف؟

- مش مهم أنا، المهم إن أنت عايش.

قولتها وأنت تنقر بسبابتك على رأسك، تفكر في حكمك كما تعودنا أن نفعل،

- أنا اللي كسبت يا يوسف وأنت الخسران، والخسران ينفذ الحكم.

وقلت جملتك التي لن أنسها أبدا. حكمك الذي أنهى حياتي

- اللي جسمه غرق ومات اسمه هو اللي يعيش

— ✦ —

تردد صدى الكلمة في رأس عبد الله وهو يقراء،
من مات جسده... فليحيا اسمه
هل يعقل أن يكون هذا الكلام حقيقة.
أن من مات ذاك اليوم كان سيف؟
تذكر فعلا أنه لم يكن يعرف من منهم الناجي.
حتى أخبره الطبيب بإن الولد فاق وقال إن أسمه سيف.
مع كل كلمة قراءها كان يستعيد الذكرى وكأنها تحدث الآن من جديد، فاضت عيناه بالدموع وهو يكمل.

- وانا قبلت الحكم... رضيت به،
ربما خوفاً منك، ... ربما خوفا من العقاب،
وربما هربا من الذنب. قبلت أن أكون سيف، حتى لو كان الثمن أن يُمحى يوسف. من يومها، لم يعد أحد يناديني يوسف.

— ✦ —

توقف عبد الله عن القراءة، ولم تتوقف عينه عند الدموع.
نظر إلى سناء وقال بصوت مرتعش.

- كان يوسف يا سناء، مكانش سيف

هزت رأسها بالإيجاب وربتت على كتفه، قلب ورقة الدفتر وأكمل في صمت

- بعدها، لم تفارقني يوماً، مرت أيام وشهور كنت مثل ظلي.
في البداية كنت خائف من وجودك، كنت أغمض عيني واتجنب النظر لك، تشاجرت معك، كنت تقول كل مرة،
- لو حافظت على تنفيذ الحكم هسيبك وامشي.

لكنك لم تفارقني.
لم يصدقني أبي حين قلت إني أراك، وأسمعك، قال لي إنها حالة نفسية، بسبب موت يوسف.
وأن عليّ ألا أتحدث عنك مرة أخرى
سمعته مرة يتحدث مع أمي وكانت هي تقول.
- الولد اتبدل يا عبد الله، بقى غريب، مبقاش سيف بتاع زمان.
تمنيت حينها أن أفتح عيني فلا أرك، أو أن يكون وجودك حلما وينتهي،
وحين أدركت أنه لا مفر من تقبل الأمر، سمعت كلام أبي، فلم اتحدث عنك معهم بعدها.
وكانت نصيحتك لي، التي تتجدد كلما كبرنا معا.
- أوعدني يا يوسف، ما تقولش لحد إني موجود، خليه سر بينا.
لما تشوفني في أي وقت لو كان في حد حواليك، متكلمنيش.
مش مهم يعرفوا أني موجود، المهم إحنا عارفين.

اعتدت الحديث معك، لم تكن أخي الذي أعرفه... أخي الذي أحببته، وغرق.
ولكن كنت صديقي الجديد، ظلّي، وضميري،
أصبحت اشعر بالطمأنينة بوجودك بجواري، وكأني احتمي بك، فأنت دائما من يحسن التصرف.
حافظت على وجودك وكنت دائما أخشى من افتضاح امرنا
أصبحت تؤام روحي.

— ✦ —

تحليل الحالة

المكان مستشفى د. فؤاد – مكتب د. فؤاد
الزمان 23 يناير 2016

كان الصباح رماديًّا خلف زجاج المكتب، الغيوم قد حجبت ضوء الشمس، الذي كان يتسلل حينا، لينسكب على الملفات كأنه يفتّش بينها عن إجابات. جلس عبد الله على الكرسي المقابل، يضم الدفتر إلى صدره كمن يخشى أن يُفلت منه الماضي، لم يكن في نيته أن يفتح الدفتر، ولا حتى أن يقرأ حرفا واحدا مما تركه سيف قبل الحادث. لولا فضول سناء زوجته.

جاءني بالدفتر كما هو، كان الدفتر بين يديه ثقيلًا كأنه يحمل وزر سنوات من الأسئلة، كانت عيناه تفيض بالدمع.

لا أدري أهو مفتاح لحل السر أم لعنه تصيب من يملكها.

حين سلمه لي، قال بصوت خافت متردد

- هو كان بيكتب كل حاجة يا دكتور... يمكن تفهم منه اللي إحنا مش فاهمينه.

وضعت الدفتر أمامي على المكتب، فتحته ببطء، ففاحت منه رائحة الورق القديم ممزوجة برائحة عطر خفيف.

توقفت للحظة، ثم بدأت أقرأ. ما أسميته بين التوأم والظل

كانت الصفحات الأولى مليئة بخط صغير دقيق، أشبه بحديث صادق بين طفلين يشتركان في قلب واحد.

كما توحي صورتهما على الغلاف الأزرق للدفتر، كان سيف ويوسف... توأم متطابق في الشكل، مختلف في الجوهر.

في صفحة الدفتر الأولى قلب مرسوم بألوان الفلومستر وبداخله اسمين، سيف ويوسف. بخط طفولي كتب أسفل منه،

- أنا بحب يوسف أخويا بس هو بيخاف كتير،
ولما بيخاف بيجي بيستخبى فيا...
لو ماكُنتش معاه بيقول للناس إن هو سيف.

من الواضح أن كاتب العبارة الأولى هو سيف
هنا تبدأ المعضلة الأولى معضلة البداية، أو كما نسميه في علم النفس التحليلي. بذرة الانقسام.

حين يلجأ الطفل الضعيف إلى هوية أقوى ليحتمي بها، يتكوّن داخل وعيه ظل نفسي، يأخذ ملامح الحامي، ومع الوقت يتحول هذا الظل إلى كيانٍ مستقل داخل النفس، كأنه توأم آخر يسكن العقل الباطن.

يوسف لم يكن يكذب حين قال أنا سيف،
بل كان يلوذ بصورة رمزية لذاته الأقوى.

ومن هنا بدأ الانقسام الأول بين الجسد والوعي. كان يكذب حين يخاف.

في إحدى الصفحات التالية كتب بخط مختلف أقل جودة عن الحادثة التي غيرت كل شيء.

- يمكن يكون اللي غرق في البحر سيف،
بس اللي مات من الخوف في اليوم ده هو يوسف.

توقفت طويلًا عند الجملة.

لو كان ما كتب هنا حقيقيا، فإن ما حدث بعد الحادثة لم يكن مجرد فاجعة أسرية، بل ولادة جديدة لكيان غير محدد.

يوسف، الذي فقد أخاه الأقوى، لم يسلم من الذنب، ولا من الحاجة إلى وجود سيف بداخله.

ومن رحم الصدمة، ولد الانقسام الثاني وعي بديل يحمل اسم الراحل.

هذا هو ما نسميه في علم النفس بـ تبدل الهوية الدفاعي، حين تعيد النفس تشكيل نفسها لتستوعب الألم.

لكن يوسف لم يكتفِ بأن يستدعي أخاه خيالا...

لقد منحه اسمه، وصوته، وبدأ يحاوره في مرآة غرفته كل ليلة

- لما ببص في المراية، بشوفنا إحنا الاتنين.
  وأوقات بشوفه هو بس.

وهذا القانون الطفولي
الدفتر يكشف لحظة محورية سبقت الكارثة

- اتفقنا ان الخسران ينفذ الحكم وأنا خسرت.

كم تبدو هذه الجملة بسيطة في ظاهرها، لكنها تحمل نواة المأساة.
اتفاق طفولي على سباق، تحول إلى لعنة واقعية. فحين غرق سيف بالفعل، نفذ يوسف الاتفاق دون وعي. لم يكن يرى نفسه قاتلا لأخيه، بل أصبح هو الامتداد الحي له.
هكذا مات يوسف، وعاش سيف، في جسد واحد يحمل اسم سيف ووعيين.

بداية الانفصال، من وجهة نظر علمية، يمكن تفسير ما حدث بأنه اضطراب في الهوية الانشقاقية،
لكن هناك ما هو أعمق... كل ما قرأته في الدفتر يشير إلى أن

يوسف لم يفقد وعيه حين غرق سيف، بل أنتقل وعي سيف ليرافق جسد الآخر.

هل يمكن أن تنتقل الروح بهذه الصورة؟
هل الوعي قابل للانتقال كطيف لصيق في حالة كان الجسدين متطابقين؟

الدفتر لا يقدم إجابة، لكنه يفتح باب السؤال على مصراعيه.

خلاصة المعضلة الأولى
من خلال كل ما ورد في الدفتر، أستطيع أن أقول إن معضلة البداية لم تكن حادثة الغرق،
بل كانت أول مرة قال فيها يوسف أنا سيف.

في تلك اللحظة ولد الانقسام النفسي،
وفي البحر فقط. تحول الانقسام إلى واقع مادي مأساوي.

لقد غرق جسدا واحد، لكن الوعي الذي نجا لم يعد يعرف لمن ينتمي. وهنا تبدأ قصة سيمي كوما...

كان فؤاد قد أمضى الكثير من الوقت في فحص الدفتر حتى إنه لم يشعر بقهوته التي بردت وسيجارته التي انطفأت.
أسند ظهره إلى المقعد وأخذ شهيقاً، عيناه تلمع ببريق الانتصار، قبل أن ينهض من مكانه، يسير ببطء ناحية شاشة تفاعلية خلف المكتب، كان يدون عليها ملاحظاته التحليلية.
أمسك بالقلم وكتب بخط واضح.
اسم الحالة: يوسف عبد الله زهران
تشخيص أولي: ازدواج الوعي
ثم التفت إلى عبد الله وقال

- خليني أشرح لك ببساطة، كل بداية جديدة بتحمل في داخلها بذرة الانقسام...

قالها الدكتور بصوتٍ منخفض ثم بدأ حديثه التحليلي

- في مرحلة الطفولة، لما مات سيف وهو طفل، يوسف حصل عنده اضطراب في مفهوم الفقد، وبدل ما يتعامل مع الغياب، دماغه عمل العكس... خلق حضور، كان بيحس إن في شخص تاني معاه، نسخة تانية منه بتكلمه.

قالت د. آمال بحماس من فهم بعد حيرة

- يعني حضرتك تقصد إنه رفض الواقع؟
- بالضبط ي آمال رفض الموت كحقيقة. وده طبيعي عند الأطفال اللي بيتعرضوا لصدمات. بس الغريب في يوسف إنه ما اكتفاش بالرفض، لأ... العقل عنده بنى نظام بديل للواقع.

ثم كتب على اللوح ثلاثة نقاط.
إنكار الفقد، ... خلق بديل، ... دمج الهوية
وأشار الى النقطة الأولى، وأكمل وهو ينظر لعبد الله

- العقل لما ما يلاقيش وسيلة يواجه بيها الألم، بيعمل نسخة من اللي فقده. النسخة دي بتبدأ خيالية، صوت داخلي أو حلم، لكن مع الوقت ممكن تاخد مساحة أكبر من الوعي، لحد ما تبقى جزء من الإدراك نفسه. يوسف سمى النسخة دي **يوسف**.

تسائل عبد الله بصوت متقطع.

- بس إيه اللي يخليه ينكر نفسه، ويعيش باسم سيف ليه مسماش النسخة سيف وفضل هو يوسف؟

قالها وهو يمسح بكفه على جبينه كمن يحاول أن يزيح غبارًا من ذاكرته

بعد لحظة تفكير، مالت آمال بجسدها للأمام، تتابع كلامها بعيون لامعة كما لو وجدت المفتاح واكتشاف الرابط

- زي ما كان كاتب بخط ايده انه لما بيخاف بيقول انه سيف، الاسم بيخليه يحس بالأمان علشان كده سمى نفسه هو سيف واختار للشخصية التانية اسمه هو يوسف؛ الاسم مش غريب وفي نفس الوقت تخيل انه بكده هيقدر يسيطر عليه.

ابتسم د. فؤاد ابتسامة المعلم الفخور بتلميذه النجيب، وقال متحمساً

- كلامك صحيح ي آمال، وده اللي خلى الدفاع النفسي عنده أقوى. وجود شبه واقعي خلى الخيال يبقى منطقي، وده أخطر نوع من الازدواج، لما الخيال يبقى قابل للتصديق.

ثم أشار الى النقطة الثانية ... خلق بديل

وكتب بجوارها، تحول الخيال إلى إدراك

فتح الدكتور الدفتر مرة أخرى، وأشار إلى إحدى الصفحات قرء ما كتبه فيها سيف بخط متوتر، ونظر لسقف الغرفة، وكأنما يره وهو يكتبها

- سيف هو اللي بيحميني لما بخاف.

هو اللي بيفهم الناس لما بكون مش قادر أتكلم.

ثم سأل عبد الله

- هو يوسف كان عنده رهاب إجتماعي، كان بيخاف من الناس يعني؟

عبد الله بعينان دامعتان وصوت يملؤه الشجن وكأنه يتذكره أمامه

- هو فعلاً يوسف كان بيتهته شويه في الكلام، وكان بيتوتر لما نخرج بره البيت أو لو فيه حد غريب جه قعد معانا.

فؤاد أكمل بنفس الحماس

- هنا بدأنا ندخل في مرحلة تانية، مرحلة التقمص. يوسف بدأ يعيش بإسم سيف، مش كأخوه بس،

لكن كنسخة أقوى منه. ده بيحصل عند بعض حالات الانفصام التكويني، لما يبتدي المريض يختار هوية جديدة تحميه من الألم. لأن سيف بالنسبة له مش مجرد أخ... سيف هو النموذج اللي يوسف عايز يكونه.

أشار د. فؤاد أخيرا إلى النقطة الثالثة ... دمج الهوية

وكتب بخط أكبر، البداية الحقيقية للانقسام

- هنا وصلنا لجوهر المعضلة، اللحظة اللي فيها الوعي اتقسم فعليًا. يوسف ما بقاش بيتخيل سيف... بقى يسمعه، يحاوره، يستشيره. بدأ يكتب له ويعيش معاه يوميًا. ومن هنا ظهرت الحالة اللي بنسميها الوعي المزدوج المتعايش.

ثم أضاف وهو ينظر في عيني عبد الله بثبات

- يوسف مكانش مجنون يا عبد الله، هو ببساطة عقل خلق طريقة يعيش بيها بعد ما الواقع كسره.

ساد الصمت لبرهة، ولم يسمع سوى صوت أنفاس متقطعة تخرج من صدر عبد الله الذي لم يستطيع منع دموعه التي انفجرت من عينه، كان يحاول أن يصدق ما يسمع.

ثم أغلق الدكتور الدفتر ووضعه برفق على المكتب، وقال في ختام الجلسة

- المرحلة الجاية... مش بس هتوضح لنا يوسف عمل إيه علشان يفضل عايش، لكن كمان هنكتشف إمتى بدأ سيف ياخد مكانه بالكامل. وده... مدخل المعضلة التانية.

حين أغلق فؤاد الشاشة بدا انعكاسه عليها، منتصب القوام، وأكثر طولا، وكأن داخله فخوراً بنفسه بما قدمه من تحليل.

— ✦ —

السقوط

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07
الزمان 25 يناير 2016

هل جرّبت من قبل ذلك الإحساس المفاجئ بالسقوط أثناء النوم؟ تلك اللحظة الخاطفة التي تشعر فيها أنك تهوي من مكان مرتفع، فتفيق فزعًا قبل أن تلمس الأرض، أو ربما تلتف على جنبك وتكمل نومك كأن شيئًا لم يحدث؟

أنا الآن أعيش تلك اللحظة... لكن بلا نهاية.

كأنني أسقط في بئرٍ لا قرار له.

الظلام يزداد كثافةً، تتوالى درجات السواد من الرمادي القاتم حتى السواد الحالك، والهواء من حولي ثقيل كأنني أغرق في العدم.

ثم فجأة تباطأت سرعة السقوط، واصطدمت بجسدي على السرير، في اللحظة نفسها، انفتح باب الغرفة.

دخلت دكتورة آمال يتبعها رجلان ضخمان، كأنهما حارسان شخصيان.

هممت برفع رأسي محاولا الجلوس، متوجسا وسألتها بصوت متردد.

- هو فين دكتور فؤاد؟

لم ترد، نظرت إلي بخوف، والتفتت للرجلين وقالت.

- ساعدوه ينام.

ثم أضافت وهي تقترب بخطوات ثابتة.

- دكتور فؤاد سافر، وهيرجع بعد كام يوم.

لم أقاوم، تركتهم يمسكون بذراعي، كنت خائفا، لكن الغريب أن الخوف لم يكن من الألم... كان من الكهرباء.

مجرد فكرة جلسة الكهرباء كانت ترعبني، كأنها شبح ينتظرني خلف الجدار. لكنهم لم يفعلوا شيئًا.

ثبتوا يديّ فقط، بينما ارتدت هي القفازين المطاطيين واقتربت مني.

- حمد الله على السلامة.

قالتها بنبرة جامدة تخلو من أي دفء إنساني.

لم أرد... كنت أشعر بطاقة ثقيلة من وجودها، كأنها تطفئ النور أينما مشت. اقتربت تفحص يدي.

كانت آثار الإبر واضحة، الجلد مزرق، والبلاستر ملطخ ببقع الدم الجاف. همست وهي تفحصني.

- بتحس بوجع؟

لم أرد.

- دكتور فؤاد قال إنك كلمته تاني.

سكتُّ. لم أرغب في الكلام معها، كنت مرتاحا مع فؤاد أكثر، أو ربما كان وجود نادية سبب كافي للحديث.

نزعت الإبرة بخفة، وضغطت مكانها بقطن وبلاستر جديد.

شعرت أنها لا تراني إنسانا، بل حالة، في تقرير طبي.

قالت بلهجة عملية

- مادام فوقنا خلاص، مافيش داعي للمحاليل، لازم تاكل وتشرب، علشان جسمك يرجع طبيعي.

قلت بصوت بالكاد يسمع.

- أنا عايز دكتور فؤاد.

- بتقول حاجة يا سيف؟

رفعت رأسي بصعوبة وقلت بوضوح.

- أنا يوسف... مش سيف. أنا عايز أشوف بابا.

اقتربت مني وفحصت فمي بعناية، أضاءت مصباحًا صغيرًا وسلطته على عينيّ، ثم دوّنت شيئًا في دفترها دون أن تنظر لي.

قالت ببرود

- قلتلك، دكتور فؤاد سافر، والزيارة ممنوعة لحد ما يرجع.
أنت حاسس بصداع؟ ... أو زغللة في العين يا سيف؟
لم أرد. كنت لا أشعر بشيء أصلًا. لا ألم، لا دفء، لا نبض حتى. كأنني قطعة لحمٍ باردة تتحرك بالصدفة.
- أنا بكلمك يا سيف، قولي حاسس بإيه؟ محتاج إيه؟
- عايز أخرج من هنا، عايز بابا...
مدّت يدها لأحد الممرضين، ناولها علبة عصير صغيرة، رجتها، قبل أن تغرس بها شفاط، قالت وهي تقربها من فمي.
- مش عايز تقول لي حاجة أبلغها لدكتور فؤاد؟
ألتزمت الصامت.
كتبت ملاحظة جديدة في دفترها، ثم نظرت إلي وقالت بابتسامة مصطنعة
- لسه عايز تشوف بابا؟
ارتجف صوتي بالفرح
- أيوه، عايز أشوف بابا... وماما كمان.
قالت وهي تمد لي العصير.
- لازم تشرب ده الأول، وبعدها هاتشوفهم، أكلّم والدك وأعملك زيارة على مسؤوليتي.
ملت بفمي بحماس أحاول التقاط الشفاط الذي مدته لي، حاولت الشرب... ولم أستطع.
عيني تتحرك، لكن شفاهي لا تفتح، ولساني كالصخر.
الجسد لا يستجيب لي.
راقبتني بصمتٍ غريب، اقتربت بعد أن أزاحت العصير جانباً، وقالت بقلق واضح
- اللي بيحصل ده مش طبيعي يا سيف.

أشارت للممرضين، فاقتربا وبدآ يربطان يدي بالأساور الجلدية.
قالت وهي تنظر لي مباشرة.

- سيف، أكيد عندك تفسير للي بيحصل ده. لازم تتكلم.
- تفسير إيه؟ مش فاهم؟

أشارت لهم أن يخرجوا بعد أن انتهوا من تثبيتي، ثم اقتربت بصوت خافت، كأنها تكلمني وهي لا تريد أن تصدق ما تقول.

- مش طبيعي إنك تقعد كده متزن قدام دكتور فؤاد، وإنت عندك نسبة الجفاف دي.
  ومش طبيعي إنك تتكلم ولسانك ناشف بالشكل ده، مافيش لعاب، مافيش ريق.
  ومش طبيعي إنك تشوفني أصلًا... عيونك ما بتستجيبش للضوء.

رفعت بصري نحو السقف وقلت بهدوء تام

- مش هتفهميني... أنا عايز دكتور فؤاد.

اقتربت وهي تجهز حقنة جديدة، تبحث عن الوريد في ذراعي.

- دكتور فؤاد سافر، رايح مؤتمر، مش هيرجع قبل شهر يا سيف.

غرست الإبرة، شعرت وكأن برودة الموت تسري في عروقي، وصرخت بأعلى صوتي

- أنا يوسف... مش سيف!

قلتها وأنا أعنيها وسأحافظ عليها مهما حدث
فلقد تذكرت شيئا ما، تذكرت لماذا أنا هنا، كان التزام مني بتنفيذ الحكم...
تذكرت إنه، إذا كُتب لنا النجاة، من سيعيش سيكون يوسف
ثم اجتاحني الصقيع. برد من نوعٍ آخر، برد يأتي من الداخل

وغبت عن الوعي... أو عدت لأكمل رحلة السقوط.

— ✦ —

أنا مين؟

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07
الزمان 1 فبراير 2016

كان الصداع يفتك برأسي كأنه مطرقة لا تهدأ، وشفتيّ مشققتان، حلقي يابس كقطعة خشب تركت في الشمس طويلاً. فتحت عينيّ بصعوبة، الرؤية كانت مشوشة تمامًا، أشبه بزجاج سيارة لطخه أحدهم ببيضة مكسورة. كل شيء يدور حولي ببطء، كما لو أنني اركب ساقية في ملاه قديمة. رأيت خيالات تتحرك بلا ملامح، وكل سنتيمتر في جسدي يئن من الألم. كانت يداي وساقاي تتحركان رغمًا عني، حاولت أن أوقف الحركة، فلم أستطع. كل عضلة في جسدي كانت تتلوى وكأنها لا تعرف صاحبها. سمعت أصواتا غير واضحة تدور حولي، فشعرت بالاطمئنان قليلا، على الأقل هناك من قد يسمعني. تمتمت بصعوبة

- عايز أشرب...

خرج صوتي خشنا متحشرجا، كأن حرف العين التصق في حلقي ولم يريد أن يغادر.

ثم جاء صوت أنثوي حاد بلهجة أمره

- وقف الجهاز!

تتابعت أصوات خطوات ثم تكتكات معدنية، شعرت بعدها أن جسدي كان مائلًا ثم اعتدل. عادت المرأة تقول،

- إنت قلت حاجة يا سيف؟

لم أكن متأكدا إن كانت تحدثني أنا أم غيري، فكررت بصوت واهن

- أنا فين؟، عايز ميه.

اقتربت مني، الأن رأيت ملامحها بالكاد، وضعت يدها على رأسي، فتحت جفني بعنف، وسلطت ضوءا أبيض قويا في عيني. أغمضت بسرعة، لكنها فتحت الجفن الآخر بإصرار وأعادت الضوء. ثم بدأت تكتب شيئا على لوحة صغيرة، وبعدها شعرت بوخزات حادة في ذراعي وساقي، كانت تغرس سن إبرة طبية في مواضع مختلفة. صرخت متألما

- إنت بتعملي إيه؟

ابتسمت تلك الابتسامة الغريبة المزعجة وقالت بنبرة باردة

- تمام يعني بدأت تحس

نظرت إليها مذهولًا، لم أفهم ماذا تعني، ولا سبب سعادتها.
رددت بعصبية وأنا أحاول تحريك جسدي الذي كان مقيدا

- إنت مين وعايزة إيه؟

لم ترد، تركتني أتكلم مع الهواء، ثم استدارت وخرجت من الغرفة.
لم أستطع رؤيتها جيدًا، كل شيء ما زال ضبابيًا،
أدرت رأسي في كل الاتجاهات أحاول فهم مكاني أو سبب ما يحدث لي، والخوف يتسلل إلى صدري كدخانٍ بارد.
بعد لحظاتٍ عادت وهي تصحب رجلاً آخر يدفع عربةً صغيرة فوقها جهاز ما، سمعتها تقول له بهدوء آمر

- ثبّت راسه كويس.

تجمد الدم في عروقي، حاولت المقاومة، لكن الرجل اقترب مني بقوة، أمسك رأسي وشدها للخلف حتى شعرت أن عنقي سينكسر.
وضعت المرأة شيئًا كالمطاط في فمي، ثم ثبتت على رأسي شيء كسماعتين معدنيتين على جانبي وجهي، كانتا باردتين كاقطعتا ثلج لامس جلدي، ثم... جاءت الكهرباء.
شرارة واحدة أشعلت العاصفة.
تيار رهيب اجتاح جسدي كله، شعرت بعظامي تتكسر من الداخل،

عضلاتي تتشنج بلا إرادتي، لم أعد أملك صرخة واحدة، حتى الصوت اختنق. كانت اللحظة الأطول في عمري، لحظة تذوب فيها القوة والإرادة والكرامة. ثم... دوار، وسواد كثيف،

— ✦ —

الزمان بعد ساعات
المكان نفس الجسد، ولكن بوعي أخر

وكأن أحدهم يدفعني لأجري ببطء شديد داخل حلمٍ لزج لا ينتهي. فتحت عينيّ فرأيت العالم مقلوبًا حقًا. رأسي يهبط إلى أسفل ثم يعود إلى أعلى، وذراعاي وساقاي تتحركان رغماً عني، كانت دكتورة آمال تجلس وظهرها ناحيتي، منشغلة بشيء على اللاب توب. ركزت بصري على الشاشة، فقرأت بوضوح كلمات من تقرير تكتبه عن حالة سيف عبد الله. الاستجابة الحسية شبه طبيعية. تابعت القراءة بعيني، كانت تكتب أنواع الحقن، وتوقيتها بالدقيقة، وتفاصيل ما تسميه، تحسنًا في المؤشرات العصبية. أدركت حينها أنني مثبت على جهازٍ غريب، يحرك جسدي في جميع الاتجاهات، أشبه بسرير مائلٍ على محور.
قرأت أنه يسمى جهاز تحريك الجسم، يستخدم لمنع ضمور العضلات وقرح الفراش. كما قرأت أنها سجلت في تقريرها أنني أخضع لأربع جلسات كهرباء كاملة! كل يوم. كان الوقت يمر، والجهاز يميل بي مرة أخرى حتى أصبحت رأسي إلى أسفل، بينما ساقاي في الأعلى. لم يكن أحد في الغرفة غيرها، فقلت بصوت مرتجف

- فين دكتور فؤاد؟

أرتجفت في مقعدها فزعة، ضغطت على زر ما. فتوقف الجهاز على الوضع الذي كنت فيه، مقلوب الرأس، ساقاي في الهواء

وذراعاي متشنجتان في وضعية عدّاء. قلت محاولا التخفيف من ارتباكها

- كده أنا مش شايفك، سيبيه شغال أحسن.

اقتربت مني بحذر وهي ترد على سؤالي الأول.

- دكتور فؤاد لسه ما جاش.

سمعت أصوات تروسٍ تتحرك، وبدأ جسدي يعود إلى وضعه الطبيعي، حتى استويت كمن يرقد على سرير مستوى.

أشرت برأسي ناحية اللابتوب وقلت

- والتقرير اللي بتكتبيه ده، عن حالتي؟

نظرت إلي باستغراب

- تقرير إيه؟ هو انت شايف أنا باكتب إيه؟

هززت رأسي مؤكدا، وقرأت لها اسم الحقنة من الشاشة البعيدة.

بدت الدهشة على وجهها وقالت وهي تقترب

- لسه عايز تشرب ميه؟

قلت مستغربا

- لأ، مش عايز. ليه بتقولي كده؟

قربت مني كوب من ماء قائلة

- مش انت من ساعتين قلت عايز تشرب ميه؟

لم أتذكر أني طلبت شيئا، ولم أشعر بالعطش أصلا، لكني أخذت الكوب. كنت أظن أنني لن أستطيع الشرب كما في المرة السابقة، لكن المدهش أن يدي تحركت أمسكت الكوب، والماء دخل فمي بسهولة، كأن الجسد بدأ يستعيد قدرته من جديد.

قالت وهي تراقبني

- بس غريبة إنك ما سألتش على دكتور فؤاد.

ابتسمت بخفة

- ما أنا لسه سألك عليه؟

نظرت إليّ باستغراب أكبر وقالت

- لأ، انت كنت قاعد تقول، أنا فين؟ ... وانتِ مين؟ قبل ما تدخل في نوبة تشنج، وتغيب عن الوعي.
  بس ما تقلقش، التشنج ده أول حاجة طبيعية بتحصل بعد الغيبوبة، اللي حصل النهارده أول خطوة في طريق الشفا يا سيف.

توقف الزمن عند الجملة الأخيرة.

تركت كلماتها تتردد داخلي كصدى بعيد، وجمعت خيوط الموقف كلها... لقد بدأ يستعيد وعيه... ويعود لجسده...

وأصبحت أنا، العالق فيه، أفقد مكاني تدريجيًا.

امتلاء صدري بفرحٍ غريب، ضحكت... ثم انفجرت في قهقهة عالية، ... قهقهة خرجت من فمٍ لا أملكه.

لكن الضحكة حرّكت شيئًا في صدر سيف، فارتفعت كحة حادة، سالت دموع من عينيه، ورأيت الرعب يكسو وجه الدكتورة آمال وهي تقترب لتسنده، قبل أن تتشنج عضلاته بعنف ويسقط في غيبوبة جديدة. وغبت أنا معه... مرة أخرى.

— ✦ —

عودة غير متوقعة

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07

الزمان 4 فبراير 2016

كان الألمُ يضرب جسدي بعنفٍ وكأن تيار كهربائي يمرّ من خلالي. السرير الحديدي الذي كنتُ مربوطًا إليه يهتزّ بي بعنف، وجسدي ينتفض دون إرادتي. ثم جاء صوتها... نفس الصوت الأنثويّ القاسي يدوّي في أذني وهي تضحك ببرود.

- يعني ما سألتش على دكتور فؤاد؟

كابوس... كابوس غريب جدًا. ثم من فؤاد هذاالذي أحلم به؟

فتحتُ عيني بصعوبة، صداع شديد يعصف برأسي، وزغللة في النظر، تجعل كل شيء يدور ببطء. حاولتُ الحركة، لكنني وجدتُ نفسي ما زلتُ مُقيّدًا، هذه المرة على سريرٍ حديديّ.

لم أكن أعرف من هؤلاء، ولا لماذا يفعلون بي هذا!

حاولتُ فكّ يديّ قبل أن يأتي أحد، لكن جسدي كان ضعيفًا إلى حد يائس... ربما أعطوني مخدرًا.

حاولتُ أن أتذكّر ما الذي أتى بي إلى هذا المكان، فلم أستطع. لا اسم، لا ماضي، لا شيء.

كل ما أتذكّره هو وجه تلك المرأة التي كانت بالأمس تُقيّدني وتعذبني...

ثم سمعتُ صوتها من جديد، بنفس النغمة الباردة

- ها يا بطل... عامل إيه النهارده؟

والآن عرفت أنها لم تكن كابوسًا، بل واقعًا مرعبًا. شعرتُ بالخوف يتسلّل لعظامي. تذكّرت الألم، الكهرباء، والصرخات المكبوتة. حينها أدركت أن فقدان الذاكرة قد يكون أحيانًا نعمة... فعندما لا تتذكّر وجعك، أفضل من أن تتذكّره كل يوم. اقترب صوتها أكثر

- أنا عارفة إنك صاحي يا سيف، يلا قوم علشان تاكل.

صرختُ مرتجفًا

- انتي مين؟ وعايزة مني إيه؟

مدّت يدها برفقٍ على رأسي وهي تقول

- أهدى يا سيف، متخافش كده.

لكن الخوف زاد. لمن هذا الأسم؟ لا أشعر أنه لي.

حاولت الكلام فخرج صوتي متقطع.

- أنتوا عايزين مني إيه؟ ... أنا فين؟ ومين سيف ده؟

ابتسمت بخفوت وقالت وهي تفك الحزام الجلديّ عن يديّ

- انت في مستشفى دكتور فؤاد... وأنا الدكتورة آمال، المسؤولة عن حالتك. واسمك... سيف.

نبرة صوتها كانت مختلفة عن المرات السابقة. فيه هدوء غريب... جعل أحساسي نحوها يتغير، لم أعد خائفاً. ربما لأنها بدأت تفك يدي. لم أحاول المقاومة، غالبا لإني لا أتذكر شياء، والأكيد لأن رؤيتي مشوشة، أكاد لا أرى موضع قدمي بوضوح. سألتها دون تفكير.

- انتي عارفة أنا مين؟

— ✦ —

هل جربتَ يومًا أن ترتدي بلوفرًا صوفيًا ثقيلًا برقبةٍ ضيّقة لا تدخل رأسك؟ ... تشدّه بعنف حتى تمرّ رأسك، وتشعر بالاختناق للحظة؟ حسنًا، تخيّل الآن أنك أيضًا ترتدي جلباباً طويلة، أكمامها ضيقة، جسدك كله محشورٌ داخلها... ولا تستطيع نزعها.

لستُ نائمًا، ولا مستيقظًا. أشعر أن رأسي عالقة داخل رقبة البلوفر، وجسدي محتجزٌ في الجلباب في الوقت نفسه. لا، ليس كفنًا، لكنه يشبه الشعور بالغرق، أو كأنني دودة قزّ داخل شرنقتها.

لا أعلم منذ متى وأنا هكذا، لكني سئمت.

وأعرف أن هذا ليس حلمًا، لأني أسمع صوت الدكتورة آمال وهي تتحدث قربي.

- انت في مستشفى دكتور فؤاد... وأنا الدكتورة آمال، المسؤولة عن حالتك. واسمك... سيف.

كنتُ أريد أن أرد، أن أصرخ فيها، أنا يوسف يا دكتورة، مش سيف!

لكن صوتًا آخر سبقني وقالها بهدوءٍ غريب

- انتي عارفة أنا مين... صح؟

ركّزتُ في الصوت...أنه سيف! سيف فاق، ويتحدث معاها!

لكن بصوته الضعيف التائه، قال لها

- مش فاكر أي حاجة... مش عارف أنا مين أصلاً.

بردٌ شديد اجتاحني، إنهمرت دموعي، وصرخت بداخله

- هو إحنا ناقصين يا سيف! دنا ما صدقت إنك فوقت، يا راجل! أبوك وأمك هيموتوا من القلق !

لكن صوتي لم يخرج...

وكأن الحروف نفسها ماتت على لساني.

في تلك اللحظة، سمعت صوته القديم في دماغي... صوت أبي وهو يقول

- خليك معانا يا ابني، وكفاية واحد مات.

معقول؟ ... هل فعلاً سيف فقد الذاكرة؟

كان الحوار لا يزال دائرا بينهم

ردت د. آمال باستغراب

- هو انت مش فاكر أي حاجة؟
- لأ... مش فاكر حاجة خالص. مش عارف أنا مين أصلاً.

ابتسمت وقالت بهدوءٍ أموميّ

- طيب، متقلقش... كل ده طبيعي بعد الغيبوبة.

التقط سيف الكلمة من فمها وكررها باستنكار، غير مصدق

- غيبوبة؟

أومأت برأسها وهي تفتح علبة الطعام أمامي وتقول بنبرةٍ هادئة

- آه يا سيف، غيبوبة طويلة. هاحكيلك كل حاجة... بس كل وانت بتسمعني.

تابعت دكتورة آمال وهي تحكي له كل اللي حصل من وقت الحادثة، حتى انتقاله إلى هنا، وفي النهاية، قالت له إن فقدان الذاكرة طبيعي بعد الغيبوبة، وإنه سوف يتذكر كل شيء قريبا.

قبل أن تخرج، قالت له

- هسيبك تريح شوية يا سيف، لو محتاج حاجة دوس على الزرار ده
- على فكرة يا دكتورة آمال، أنا مش شايف كويس... الرؤية مش واضحة خالص. وبلاش تقولي إن ده من الغيبوبة.

قالها وهو ينظر الى الفراغ.

توقفت آمال عند الباب وعادت له بخطوات، يغلبها الشك والحيرة فحصت عيناه بدقة قبل أن تقول

- مش شايف من قريب لكن بتشوف كويس من بعيد، صح؟
- مش شايف كويس، ... لا من قريب ولا من بعيد.

ضحكت وهي تدير ظهرها وقالت بنبرة تشوبها السخرية

- بلاش دلع يا سيف، دنتا قريت التقرير من آخر الدنيا، بكرة هانعملك فحص شامل، ونشوف كمان دكتور العيون. يمكن تكون محتاج نظارة.

خرجت، وتركتني معه، محبوس بداخله.

وقف سيف في منتصف الغرفة، ثابتا كأنه تمثال. حاولت أن أتحدث! أتحرك... أرى بعينه أو أتكلم بداخله، لم أستطع.

تملكتني الحيرة، هل انتهى دوري إلى هنا؟ ... ربما!

دخل اثنين من الممرضين ومعهم عربة صغيرة عليها جهاز الكهرباء.

ربطوا سيف على السرير، شدو يديه وقدميه بالاحزمة الجلدية، ودخلت الدكتورة آمال، وقالت له بهدوء بارد

- معلش يا سيف، إحنا مش بنعذبك والله... ده جزء من العلاج.

لم يستطع الكلام بسبب وجود العضاضة في فمه.
بدأت الجلسة، وعلا صوت أزيز الكهرباء، وبدأ الجسم ينتفض.

— ✦ —

في تلك اللحظة، خرجت رأسي من رقبة البلوفر الصوف التي كنت بداخله فجأة، ... وجدتني واقفاً خارج الجسد.
دون أن أفكر قفزت مبتعداً هرباً من الكهرباء، ثم ... نظرت إليه.
رأيت عينه متعلقة بي، وكأنه يراني ... نعم إنه يراني!

أختلطت مشاعري بين السعادة والوجع!
ربما كانت هذه الجلسات حقا في مصلحته، ربما كان كلام الدكتور صحيح وأن الكهرباء ستعيده لوعيه.
لم أدري أهو أحساس أم تقريرا قرأته على شاشة منذ قليل، لكن ما رأيته بعيني أنه يتحسن، إنتهت الجلسه وتركوه يعاني، يرتجف مثل المذبوح. خرجوا، فاقتربت منه، كنت حقا أريد أن أطمأن عليه. ما إن اقتربت حتى نظر لي بعينان مرهقة وقال وفمه يزبد،
- إنت مين؟
أبتسمت وقبل أن أجيبه... غاب عن الوعي.
تركني أنا، بين الغياب والحضور، لا أعرف من الناجي،

— ✦ —

مكالمة عمل

المكان لندن ـ صالة فندق يستضيف المؤتمر الطبي
الزمان 4 فبراير 2016

كانت استراحة بين الندوات، وكان جميع الحضور منهمكين في حوارتهم الجانبية حين رنّ الهاتف بنغمةٍ هادئة.

التقطه فؤاد، على الشاشة كان اسم آمال ابتسم وقال بنبرة ودودة، وهو يجيب

- إزيك يا آمال؟ إيه الأخبار عندكم؟

جاء صوتها هادئًا، يحمل نغمة حماس خافت

- أخبار كويسة جدًا يا دكتور

رفع حاجبيه باهتمام

- خير؟ طمنيني
- أمبارح بدأ يتكلم، وقال إنه عايز يشرب.

ساد صمت لحظة قصيرة، ثم تابع فؤاد:

- تمام... وبعدين؟
- قربت منه أفحصه، لقيت استجابته للضوء شبه طبيعية، بطيئة شوية بس موجودة. ولما شكيته بالإبرة بان عليه الألم، وردود فعله كانت بنسبة كبيرة طبيعية.

قال فؤاد بارتياح واضح

- عظيم... هو ده اللي كنت مستنيه أسمعه. في حاجة تانية حصلت؟ اتكلم معاكي في أي حاجة تانية؟
- أيوه. صوته كان تخين شوية لما طلب الميّه، وكان واضح إنه بيتألم، بعد كده اتعصب وجات له حالة تشنج، ودخل في غيبوبة.

هزّ فؤاد رأسه كأنه كان يتوقع ذلك

- طبيعي جدًا لحد دلوقتي... في حاجة حصلت بعد كده؟
- بعدها فاق تاني، واتكلم عادي كأنه ناسي كل اللي حصل، وبعد شوية بدأ يضحك ويكح ويعيط في نفس الوقت، وبعدها جات له حالة تشنج تاني.
- تمام جدًا... كل ده في الإطار المتوقع. نستمر على نفس الجدول، مفيش حاجة تتغير.

صمت فؤاد قليلًا، ثم قال بهدوء بصوت منخفض

- أنا يومين وراجع

أنهى المكالمة بهدوء. وضع الهاتف على المنضدة، وظل ينظر أمامه طويلاً، كأنه يعيد في ذهنه كل كلمة سمعها.

ثم كتب ملاحظة صغيرة في دفتره... المرحلة الثانية بدأت تناول من حقيبته دفترًا ذا غلاف أزرق قديم، يحمل أثر الاستعمال الطويل، دفتر يوسف. تردد لحظة قبل أن يفتحة،

أخذ يقلب بين أوراقه حتى توقف عند آخر ما كتبه المريض قبل الحادث.

— ✦ —

اليوم هو 20 ديسمبر، يوم مولدي واخترت أن يكون يوم خلاصي

لم أعد أعرف مَن منا الحقيقي. أحيانًا أستيقظ لأجد أني قد تحدثت في الهاتف مع أرقام لا أذكر أني سجلتها. أقابل أشخاصًا يعرفونني ولا أعرفهم. أدركت أنك أنت الذي يفعل ذلك.

تسرق جسدي حين أغفو، تعيش حياتك داخل حياتي، تضحك، وتشرب، وتتشاجر، وتحب.

سرقتَ كل شيء حتى وجهي، ... يوما ما نظرت في المرآة. وجدت ملامحي تتبدل، صرت غريب حتى على نفسي.

حين التحقتُ بقسم علم النفس، لم تكن مصادفة،
ولم يكن "المجموع" كما ادعيت أنا. كنت اخطط لذلك في صمت،
وكان هدفي واضحًا، أن أفهمك. أن أعرف ما أنت.
رغبتي في فهم الحالة التي نعيشها، كانت سببا في تفوقي الدراسي.
هل أنت حقاً روح سيف أخي الذي غرق؟ أم أنت مرضي؟
كنت أدرس الاضطراب التفارقي، وذنب الناجي من الموت.
لكني لم أستطع أن أعالج نفسي. أنت كنت الأقوى.
كلما حاولت أن أقاومك، كنتَ تضحك وتقول.

- أنا اللي أنقذتك من البحر، ما تنساش

لم أستطع التخلص منك بأي شكل فأنت اساساً ميت والميت لا يقتل... في النهاية، عرفت أن الخلاص لا يكون إلا بالموت.
قررت بلا رجعة ان نموت سويا كما كان مقدرا لنا. الاثنان يجب أن يموتا معًا، لأن واحدا منا لا يستطيع أن يعيش مع الآخر.

— ✦ —

فرضية مستحيلة

المكان لندن ـ صالة فندق يستضيف المؤتمر الطبي
الزمان 5 فبراير 2016

تحت عنوان الفرضية المستحيلة، انطلقت ندوة حوارية ضمن فعاليات المؤتمر الدولي لعلم الأعصاب والسلوك البشري.
وبعد عرضٍ طويلٍ لعدد من الدراسات والحالات الطبية النادرة، وقف الدكتور فؤاد الجبالي أمام الحضور، يُلقي كلماته الأخيرة قبل بدء الجلسة النقاشية، متأملًا بعمقٍ وقلقٍ في آن واحد

- أين يكمن الوعي؟ هل الوعي داخل الجسد؟ داخل المخ؟
أم أنه كيانٌ مرافق للجسد، اتصال من نوعٍ أثيريٍّ لا نملك له تفسيرًا علميًا بعد؟
- هل الوعي هو الروح؟ أم أن الروح هي التي تفكر وتتخذ القرار؟
أم أن المخ، بمراكزه العصبية، هو المتحكم الوحيد؟
في حالات الاضطرابات النفسية، مثل ازدواج الشخصية، هل نحن أمام ازدواجٍ في الوعي ذاته؟
وفي حالة مثل التي أدرسها حاليًا، مريض ازدواج الشخصية إذا فقد ذاكرته وتم علاجه!
من الذي سيعود؟ إي ذاكرة، أي وعيٍ وأي شخصية؟
هل للروح ذاكرة منفصلة، عن تلك المختزنة في مركز الذاكرة بالمخ؟ وهل يمكن للوعي أن يمرض دون أن يمرض الجسد؟

ساد الصمت القاعة لثوانٍ بعد كلماته، قبل أن تبدأ همهمات العلماء والباحثين تتصاعد في فضاء القاعة الفخمة.

— ✦ —

بعد انتهاء الندوة، جلس الدكتور فؤاد الجبالي في صالة الفندق المضيئة بأنوارٍ خافتة، وأمامه فنجان قهوة داكنة وسيجار فخم

يتصاعد دخانه ببطء. جلس إلى جواره صديقه القديم الدكتور مراد. قال فؤاد مبتسمًا

- مش غريبة يا دكتور مراد إننا مانتقابلش في مصر خالص، حتى بالصدفة، ونشوف بعض هنا؟

ضحك مراد وهو يشعل سيجارته

- يا صديقي العزيز، زي ما بيقولوا في مصر... الدنيا مشاغل! كل واحد في دوّامته، وبعدين أنت بتجيب منين الأفكار دي يا فؤاد،

هل تمرض الروح مثلما يمرض الجسد؟

أين يكمن العقل؟ وأين يسكن الجنون؟

قالها بانفعال وهو يحاول تقليد حركات فؤاد الجسدية أثناء الندوة، كأنه يعيد تمثيل المشهد. رد فؤاد بابتسامة باهتة وهو ينفث دخان السيجار

- وحشاني خفة دمك وفلسفتك يا دكتور، والله.
- يا فؤاد، احنا غرقانين في شغل ملوش آخر، طبيعي ما نتقابلش، رغم إنك على طول في بالي!

ضحك فؤاد بخفّة مجاملةً، ثم مال للأمام وقال بنبرة اهتمامٍ جادّة

- صحيح يا مراد، إيه حكاية الولد اللي بعتهولي؟ اللي بيتكلم وهو في غيبوبة؟ إيه اللي خلاك تبعته عندي تحديدًا؟

أجاب مراد وهو يراقب دوائر الدخان تتلاشى في الهواء

- أيوه... الولد ده حالة عجيبة فعلًا. التحاليل كلها بتقول إنه في غيبوبة كاملة، مافيش أي نشاط وعي ظاهر، لكن الغريب إنه أوقات كان بيتكلم! يسأل عن أبوه، أو أمه، أو أخوه اللي مات. وكان بيتحرك، يفتح عينه... كل ده والأجهزة مش بتسجل أي تحسّن حقيقي، لا في الإشارات العصبية ولا في المخ!

أشعل مراد سيجارته الثانية وقال وهو يحدّق في وجه فؤاد

- بصراحة يا فؤاد، الموضوع ما بقاش علمي خالص... ده بقى حاجة ماورائية. يمكن فعلاً ليه علاقة باللي كنت بتتكلم عنه في ندوتك الأخيرة، الوعي والروح والاتصال الأثيري.

سكت فؤاد لحظة، ثم قال بصوتٍ خافتٍ كأنه يحدث نفسه

- الحالة دي هي الفرضية المستحيلة... بس يمكن المستحيل هو الطريق الوحيد للفهم.

— ✦ —

معضلة العقدة

المكان لندن قاعة الندوات الكبرى بالفندق
الزمان 5 فبراير 2016

في اليوم الثاني من فعاليات المؤتمر الدولي للطب النفسي تحت عنوان. الفرضية المستحيلة

كا السؤال هل الوعي كيان مادي أم طيف أثيري؟

اعتدل الدكتور فؤاد الجبالي في جلسته، ثم نهض ببطء وهو يرتب أوراقه أمام المنصة. تحت الأضواء البيضاء العالية، بدا وجهه هادئًا لكنه مثقل بالتفكير.

في الصفوف الأولى جلس الأطباء والأساتذة القادمون من جامعات أوروبا وأمريكا، وفي الخلف كاميرات القنوات العلمية تنقل البث المباشر. وعلى الشاشة خلفه عُرض عنوان الجلسة الفرعية التي سيترأسها

دراسة حالة انقسام الوعي وتبدل الهوية في حالات الغيبوبة الجزئية **Simi Coma**

توقف لحظة، ألقى نظرة سريعة على الحضور، ثم قال بصوت عميق وواثق

- السادة الزملاء... سأتحدث إليكم اليوم عن حالة نادرة، وربما فريدة، حالة تخطت حدود المنطق العلمي، وربما أيضًا كسرت الحاجز بين النفس والروح.

همهمت القاعة باهتمامٍ شديد.

فتح د. فؤاد شاشة العرض، فظهرت صورتان متطابقتان لتوأم صغيرين يبتسمان للكاميرا.

- هذان هما يوسف وسيف، توأمان حقيقيان. تشابهٌ تام في الملامح، واختلافٌ حاد في الشخصية.

كان سيف أكثر قوة وثقة، بينما يوسف أكثر خوفًا واعتمادية.

لكن اللافت أن يوسف، منذ طفولته، كان يحتمي باسم أخيه.
ومن هنا، بدأ ما أسميه اليوم الوعي البديل.
رفع أحد الأطباء يده وسأل
- هل تتحدث يا دكتور عن اضطراب هوية انشقاقي؟
ابتسم فؤاد وأجاب
- جزئيًا نعم، لكن ما لدينا هنا ليس مجرد انشقاق نفسي... بل اندماج وعيين في جسد واحد. بداية وعي المزدوج
أكمل د. فؤاد بعد ان قام بتبديل الشريح المعروضة بإخرى كتب على عنوانها من الاتكال إلى التقمص
- حين مات سيف غرقًا، في حادث البحر، ظن يوسف أنه السبب. الذنب عند هذه المرحلة السنية لم يُترجم بالندم فقط، بل بتقمّص الدور التعويضي. لذلك عاش يوسف بعدها باسم سيف، لا هروبًا من الألم، بل بحثًا عن الحماية في صورة الأخ الذي كان يملك القوة. منح أخاه اسمه وصوته، وبدأ يتحدث معه كصديقٍ متخيل، لا كذكرى. وهنا، أيها السادة، بدأت المعضلة الثانية. ليس انقسام الوعي فحسب، بل تبادل المواقع بين الوعيين.
ثم شريحة أخرى بعنوان مرحلة **ازدواج الوعي الكامل** وأكمل الحديث
- في سنوات المراهقة، بدأ يوسف يشعر بالاختناق داخل هوية ليست له. صار يكتب في مذكراته عن رغبته في أن يعرف من منهما الحقيقي؟ كان يسأل نفسه،
هل أنا روح أخي التي عادت لتحيا؟، أم مجرد مريض يطارده خيال الراحل؟
في تلك الفترة درس علم النفس محاولًا أن يفهم ذاته علميًا،

لكنه دون أن يدري فتح الباب لجنونٍ أعمق، إذ بدأ يدرك أنه أحيانًا يفقد السيطرة على جسده تمامًا،
وأن 'سيف' الشخصية الأخرى - تتولى القيادة.
صمت فؤاد للحظة، ثم أكمل بصوتٍ أخف
- هذا ما أسميه الانقسام النشط، حين لا يصبح الآخر خيالًا، بل شريكًا فعليًا في الجسد.
بدل الشرائح بشريحة تحت عنوان **قانون الاستبدال** وأكمل الحديث
- في إحدى مذكراته الأخيرة كتب يوسف.
إن لم أستطع أن أعيش كما أنا، فليعيش هو بدلاً مني.
ثم أخر ما كتبه قبل حادث السيارة بخط مرتعش
- إذا كتب لنا النجاة من سيعيش سيكون يوسف
تلك العبارة لم تكن نية انتحار، بل كانت محاولة عقل مأزوم لإعادة التوازن بين شخصيتين داخل جسدا واحد.
وفي حادث السيارة الذي أدخله الغيبوبة، كان التطبيق الفعلي لما كتبه.
سباق أخير بين وعيين على حق الحياة.
ومن سيفوز سيحيا باسم يوسف، تنفيذًا لحكم قديم تم الاتفاق بينهم عليه أن من سيعيش سيكون يوسف.
وأخير أخر شريحة في الندوة كانت بعنوان
معضلة منتصف الطريق
رفع فؤاد نظارته عن عينيه، ونظر للجمهور قائلًا
- نحن أمام حالة لا يمكن تفسيرها فقط بالنظريات النفسية.
فعلم الأعصاب لا يستطيع وحده أن يشرح كيف احتفظ المريض بذكريات شخصين مختلفين.
نحن أمام وعيين متداخلين، أحدهما يسكن الجسد، والآخر يراقب من خارجه، كلاهما يملك ذاكرة وحسًّا وإرادة.

ثم أردف ببطء، وكأنه يلقي اعترافًا أمام نفسه

- في ظني... هذه ليست فقط حالة مرضية، بل تجربة وجودية.
  ربما الروح هي التي تصنع الوعي، لا العكس.
  وربما حين ينكسر الوعي، تحاول الروح أن تُعيد ترتيب الفوضى بطريقتها الخاصة.

سادت القاعة لحظة صمتٍ عميق.

ثم بدأ التصفيق، خافتًا في البداية، ثم متصاعدًا.

انحنى الدكتور فؤاد قليلًا، وهو يتمتم لنفسه

- تلك يا سادة... كانت معضلة العقدة، حيث لا يعود الإنسان يدري، من الذي يعيش بداخله... ذاته أم ظلّه؟

— ✦ —

اللقاء

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07
الزمان 6 فبراير 2016

ليومين كاملين أنتظرت، حاولت إيقاظه، لكنه يغط في نوم عميق، كنت متأكد منذ البداية، أن سيف قادرا على رؤيتي على حالتي تلك، ... أو لعلّه الوحيد الذي يمكنه أن يراني خارج جسده.

جلست فوق رأسه أراقب أنفاسه، محاولًا أيقاظه مرارا، دون جدوى. كان نومه ثقيلًا كالعادة، كأن جسده ما زال يقاوم الغرق. للمرة الأولى لاحظت آثار العملية، حلقوا شعر رأسه بالكامل، وظهر جرح غائر على شكل هلال، يبدأ من فوق حاجبه الأيمن ويصعد حتى منتصف جمجمته. كان الجرح قد بدأ يلتئم، لكن حوله تورّم خفيف، والجلدورديّ يميل إلى الاحمرار. ربما مازال يؤلمه، ووجهه قد خَسَف كثيرًا، وتحت عينيه سواد عميق، وشاربه ولحيته غير مرتبين. فكّرت في الأمر وضحكت بصوت مسموع، وقلت في نفسي

- لو عرف إني سايبه كده، وأنا اللي كنت بتحكم في جسمه شهرين، هيقول عليا مهمل كالعادة

يبدو أن ضحكتي أيقظته، ففتح عينيه بصعوبة، رفع رأسه يسندها إلى السرير، ثم قال بنبرة مرهقة

- إنت مين؟ ما مشيتش معاهم ليه؟

تجمدت مكاني. لم أعرف ماذا أفعلّ!

أقترب منه وأحتضنه؟ أم أهرب؟

لم أكن متأكدا حتى إن كان يراني حقا أم لا.

سألني من جديد

- مش بترد ليه؟

قلت بتردد وأنا أقترب قليلًا.

- حمد الله على السلامة.
قال ببرود
- الله يسلمك يا سيدي. إنت بتتعالج هنا، صح؟
أنا شوفتك، كنت واقف تتفرج عليّا وهما بيعملولي جلسة الكهربا.
- إنت شايفني كويس؟
- يمكن إنت الحاجة الوحيدة اللي شايفها بوضوح، كل حاجة حواليك مغبشة.
ابتسمت رغم خوفي، وسألته.
- شايفني إزاي؟
ضحك وقال بسخرية خفيفة
- أما مستشفى مجانين صحيح،
شايفك زي الناس، هاشوفك إزاي يعني؟
- أصلي سمعتك بتقول للدكتورة إنك مش شايف كويس، صح؟
- بس إنت ماكنتش موجود وأنا بقولها كده!
- يا ابني، إنت فاقد الذاكرة، أكيد شوفتني قبل كده وناسي.
نظر لي مطولًا، ثم قال متحفزًا.
- فاقد الذاكرة؟ ودي كمان عرفتها! لأ، دنتا عارف كل حاجة... ماقولتليش... إنت بتتعالج من إيه هنا؟
- لأ، أنا مش عيان.
ضحك وهو يطالعني من أعلى لأسفل.
- هاه؟ مش عيان؟ طب لابس كده ليه؟
وماشي حافي ليه يا سيد العاقلين؟
مد يده إلى رأسه، يتحسس موضع الجرح، ثم اقترب مني قليلا، ونظر إلى رأسي كأنه يقارن بيننا، وفجأة شهق وقال بنبرة ذهول

- يا ولاد الكلاب... أنا دلوقتي فهمت!
دول دكاترة مجانين وبيعملوا علينا تجارب! وأكيد هما اللي مسحوا لي الذاكرة! كنت حاسس من الأول إن في حاجة غلط!
- خيالك وسع أوي يا سيف، تجارب إيه؟ مفيش الكلام ده.
إنت كنت في غيبوبة، والناس هنا دكاترة طيبين، وإنت فعلا فاقد الذاكرة.
- لأ أنا مش مطمن، لو إنت عارف حاجة عني لازم تقولّي عليها.
- اهدَى كده، واحكيلي إنت فاكر إيه، وأنا هساعدك تعرف الباقي. مع إني أنا كمان في حجات كتير مش فاكرها.
بدت على وجهه علامات حيرة وخوف، وقال بصوت واطى
- أن مش فاكر حاجة، ومش عارف غير الكلام اللي قالتهولي الدكتورة، اسمي سيف، وبتعالج هنا من غيبوبة وفقدان ذاكرة.
وفعلاً مش فاكر أي حاجة تانية... الذاكرة بتاعتي صفر.
نظرت إليه طويلًا وأنا أفكر لا يمكن أن أقول له الحقيقة الآن.
لا يزال يحتاج الكثير من الوقت حتى يتعافى، يجب أن أتأكد إنه أصبح سليما فعلًا ويستطيع التحمل، هل سيتقبل فكرة إنه يتحدث مع روح أخيه الميت؟ قلت له أخيرا وأنا أحاول أبدو هادئًا
- خلينا نتفق على حاجتين، يا سيف.
أولاً، أي حاجة هاقولهالك، أوعدني تفضل سر بينا، ما تقولش لحد إني بكلمك.
وثانيًا، لو شوفتني في أي وقت وكان في حد موجود... ما تقولش إنك شايفني أصلاً.
نظر لي بريبة وقال مبتسمًا بسخرية خفيفة.

- إيه الجو ده يا ابني؟ ... ده إنت عاقل جدًا كده... صحيح، هو اسمك إيه؟

قلت بهدوءٍ مصطنع

- أنا اسمي يوسف، أنت مش فاكرني؟

ابتسم بخفوت وقال وهو يحاول أن يبدو طبيعيًا

- أهلاً يا يوسف، هو مفيش غيرنا في المستشفى؟ ... من ساعة ما فقت وأنا مش شايف حد غيرك.

— ✦ —

كان ضوء الصباح ينساب في خيوط رقراقة.

أشعة الشمس في الصباح كافية أن تعطي النفس شعور بالارتياح.

حين فتحت آمال الباب بابتسامةٍ خفيفة، قالت وهي تدخل

- ألف حمد الله على السلامة يا دكتور.

ردّ عليها بابتسامة مجاملة وهو يمد يده لمصافحتها

- الله يسلمك يا آمال، عاملة إيه؟ طمنيني... إيه الأخبار عندك؟

وضعت آمال مجموعة من الملفات المطبوعة أمامه وقالت

- دي تقارير شاملة لكل الحالات في فترة غياب حضرتك، ولخصت الأحداث المهمة اللي حصلت في الأقسام.

بدأ د. فؤاد يقلّب الملفات باهتمام، بينما تابعت هي الحديث بنغمة جادة

- بالنسبة لحالة سيف... التحسّن ملحوظ جدًا، والأسلوب العلاجي اللي حضرتك أوصيت بيه قبل سفرك جاب نتيجة ممتازة. بس حصلت حاجة غريبة شوية.

رفع رأسه من فوق الأوراق

- غريبة؟ تقصدي إيه؟

- هو اشتكى إنه مش بيشوف كويس، فعملنا له تشيك أب كامل. النتائج كلها طبيعية، لكن دكتور العيون لاحظ حاجة غريبة في تكوين عينه.

قطّب فؤاد حاجبيه وقال

- مش فاهم قصدك.

تنفست آمال وقالت بجدية

- دكتور العيون لاحظ وجود طبقة شفافة خلف الشبكية، بتعكس الضوء بطريقة غير مألوفة... وصفها إنها حالة نادرة اسمها انعكاس مابعد الشبكية.

صمت فؤاد لثوانٍ، ثم قال ببرود

- مش مهم. الموضوع ده مالوش علاقة بشغلنا.

هزّت رأسها

- تمام يا دكتور. بس هو أوصى له بنظارة، وعملناها فعلاً.

أثناء حديثهم كان د. فؤاد قد فتح اللابتوب أمامه

تحركت أصابعه على لوحة المفاتيح بتردد، كأنه يخشى ما سيجده... ثم فتح بث الكاميرا، وبدأ يتابع البث المباشر من كاميرا غرفة يوسف. دقّق النظر في الشاشة، ثم مال بجسده للأمام فجأة.

لاحظ أن يوسف يتحرك في الغرفة بشكل طبيعي، لكنه في كل مرة يجلس فيها، يوجه رأسه ونظره لنقطة ثابتة في الفراغ... يتكلم وكأنه يتحدث لشخص غير مرئي. أغلق د. فؤاد اللابتوب بهدوء، ثم قال بنبرة حازمة وهو ينهض من مكانه

- تعالى معايا يا آمال... أنا عايز أشوف يوسف دلوقتي.

— ✦ —

بين أنفاسي

المكان غرفة بلا جدران.
الزمان بين الحلم واليقظة.

لم أكن نائمًا، ولم أكن مستيقظًا. كانت أنفاسي تتردّد في الفراغ، صوتها كأنه أمواج البحر. هناك، في تلك المساحة الرمادية، كان يجلس في مواجهتي.

يشبهني تمامًا، لكنّ عينيه تحملان عمقًا لا يُحتمل، كأنهما مرتا بكل ما لم أجرؤ على رؤيته. قال بصوتٍ أقرب إلى الصدى

- أنت فاكر إنك نجيت من الموت؟ ما حدش فينا نجا.

أردت أن أرد، لكن صوتي لم يخرج.

لم يكن الأمر خوفًا، بل عجزًا؛ كأن الحروف تحتاج إذنًا لتخرج.

تابع بنبرةٍ هادئة لكنها تخترق السكون

- كنت دايماً بتسيبني أواجه أي مشكلة، وبتستخبى يا ورايا. حتى دلوقتي بتعمل نفس الشيء.
- زمان كنت صغير، كنت بخاف، وانت كنت بتعرف تتصرف.
- طيب ودلوقتي، سايبني ليه؟ أنا بحس بالوجع وأنت بتراقب من بعيد. ولما بغيب عنك بتهرب من المواجهة...
  حتى مش عايز تقول إنك موجود!... إيه عاوز تموت؟

سكت قليلًا، ثم رفع يده ورسم دائرة في الفراغ تكونت سحابة دخانية كثيفة ثم وبدون مقدمات ارتسمت عليها ذكره لي.

رأيت نفسي طفلًا أختبئ خلفه من عقاب أبي. وصوتي الطفولي

- سيف اللي كسرها مش أنا

ثم فتى يهرب من مواجهة ناظر المدرسة باسم أخيه

- اسمي سيف عبد الله.

ثم رأيته يغرق وصوتي يصرخ باسمه... سيف، ولا أحد يسمع.

تبددت الذكريات أمامي وقال بصوته الحاد

- الاسم مش هيحميك تاني يا يوسف... الحماية دي وهم.
لازم تواجه خوفك، طول منت خايف، أنا هافضل موجود،

لحظات صمت مرت كالدهر ثم أكمل

- زي ما اتفقنا لو عايز تعيش، هاتعيش يوسف أو هنموت أحنا الاثنين

شعرتُ ببرودةٍ تتسلّل إلى أطرافي، وصوت أنفاسي يتداخل مع أنفاسه.

لم أعد أميّز إن كنت أتنفّس أنا أم هو.

بدأت جدران الغرفة تتكوّن من حولنا، وسمعتُ دقاتٍ منتظمة تشبه نبض قلبٍ واحد. ثم همس قائلاً وهو يشير نحو جسدي الممدد وكأنه يدعوني للدخول

- تعالى متخافش.

لم أدرِ أهو عرض أم تهديد، لكنني اقتربت. ومع كل خطوةٍ نحوه، كان صوته يصبح أهدأ، والفراغ أضيق، حتى صار بيننا نفسٌ واحد، يُسحب من فمٍ ليدخل صدر الآخر. في اللحظة الأخيرة، قبل أن يختفي وجهه، قال لي

- اللي يصحى فينا يفضل فاكر أن التاني مامتش

ثم عمّ النور كل شيء.

وشعرتُ بجسدي يُسحب إلى أعلى، إلى سريرٍ باردٍ في غرفةٍ بيضاء،

وصوتٍ بعيدٍ يقول:

- دقات القلب ثابتة... الحالة مستقرة.

— ✦ —

أنـا مش مجنون

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07

الزمان 6 فبراير 2016

طرق الباب ودخلت د. آمال، يتبعها بخطوات بطيئة د. فؤاد الذي قال بابتسامةٍ حانية

- إزيك يا بطل؟ عامل إيه النهارده؟

نظر سيف إلى يوسف الذي اقترب منه وهمس وهو يعقد ذراعيه أمام صدره

- هتبدأ من دلوقتي اللي اتفقنا عليه... اللي ورايا ده دكتور فؤاد، قوله إنك بقيت كويس.

سيف تردّد لحظة قبل أن يلتفت نحو الطبيب الذي كرر سؤاله

- ها يا بطل، أخبارك إيه؟
- حضرتك بتكلّمني أنا ولا هو؟

قال يوسف غاضبًا

- يا بني آدم، قلتلك ما تقولش لحد إنك شايفني!
- أكيد بكلمك إنت، هو في حد غيرك هنا؟

قالها د. فؤاد مستنكرا، فرد عليه سيف ببساطة

- أيوه طبعًا.
- قصدك الدكتورة آمال؟
- لأ، ويوسف كمان.

صرخ يوسف بعصبية

- يا بني آدم، مش هتخسر حاجة لما تسمع كلامي!

قال فؤاد محاولًا الحفاظ على هدوئه.

- تمام مش مهم الأسم، أفتكرت حاجة عن نفسك؟
- مش فاكر حاجة خالص.

قال الطبيب بحدةٍ مفاجئة

- إزاي؟ أنت كلّمتني قبل كده، كنت فاكر الحادثة، وحالتك بتتحسن، ومفيش أي سبب يخليك تنسى أكتر!

سيف، وهو يرمش بعينين متسعتين

- أنا كلمتك قبل كده؟ أنا أول مرة أشوفك أصلاً.

التفت الطبيب إلى آمال وقال بنبرة حاسمة

- معلش يا دكتورة، سيبينا لوحدنا شوية.

خرجت آمال، وبقي الثلاثة في الغرفة.

يوسف تحرّك إلى الجانب الآخر من السرير، فتبعه سيف ببصره دون وعي.

رفع الدكتور فؤاد صوته قليلًا

- أنت مش عايز تتكلم قدام آمال صح يا يوسف، ... ركّز معايا. أنت كلمتني قبل كده، وقلتلي إن نادية بعتالك رسالة. بصلي يا يوسف، إنت بتبص فين؟

في تلك اللحظة كان يوسف يتحرّك، فأشار إليه سيف بإصبعه.

سأل الطبيب بسرعة

- إنت شايف نادية؟ ... بتقولك إيه؟

صرخ سيف بعصبية، مشيرًا إلى يوسف

- نادية مين؟! أنا مش شايف غير البني آدم اللي قدامك ده!

يوسف، وهو يضرب كفّيه ببعض بغيظ

- يخرب بيتك، هيكهربوك والله! وأنا مش حمل جلسات كهربا تاني، أنا اللي بتبهدل مش إنت!

د. فؤاد يأخذ شهيق، وبهدوء

- ده مين؟ قولي شايف إيه بالظبط؟

اقترب يوسف وهمس برجاءٍ

- أبوس إيدك، هيعتبروك مجنون. أعمل زي ما قلتلك.

لكن سيف صرخ في وجهه
- يعملوا اللي يعملوه! أنت بتهددني، أنا مش فارق معايا حاجة!
قال الطبيب بنبرةٍ جادة
- مين هما؟ اللي يعملوا؟ مفيش غيري أنا وإنت هنا.
- لأ، في واحد تالت! واقف جنبك! وبيكلّمني! وأكيد إنت شايفه زيي، أنا يمكن أكون مش فاكر حاجة، بس مش مجنون. ولو دي لعبة بتلعبوها عليا، فاعرفوا إن أنا مش ساذج للدرجة دي!
يوسف بصوتٍ حاد
- ده أنت مش ساذج... ده أنت عبيط!
دكتور فؤاد بدأ يفقد أعصابه، وخبط بكفّه على حديد السرير
- يا سيف ... أو يا يوسف، كفاية تمثيل! محدش قال عليك مجنون ولا حاجة!
يوسف وقف بجانبه، مقلدًا نبرته
- أهو كده بقيت مجنون رسمي، وتستاهل الكهربا
حاول سيف النهوض بعصبيةٍ حادة، عروقه نافرة، صوته يعلو
- بتهددوني بالكهربا؟ أنا مش فارق معايا، اعملوا اللي تعملوه! أنا مش فار تجارب يا ولاد الكلاب!
قال الطبيب بنبرة قلق
- يا ابني محدش قال كهربا!
- لأ، هو لسه قايلها أهو! إنت بتستعبط؟!
يوسف وهو يضحك بسخرية
- كانوا بيقولوا عندك فقدان ذاكرة بس، ... طلعت مجنون رسمي!
سيف، وهو يلتفت إليه غاضبًا
- لأ، ده أنت اللي مجنون والجبان، وديه مش طريقة علاج!

ضغط الطبيب على الجرس بعصبية، دخل ممرضان فورًا.
قال الطبيب بصرامة

- اربطوه، وهاتوا جهاز الكهربا بسرعة.

حاول سيف المقاومة دون جدوى، والدماء تصعد إلى وجهه وهو يصيح

- شفت؟ قلتلك إنكم حيوانات! اعملوا اللي تعملوه، حتى لو موتوني... أنا مش مجنون!

ثبتوه على السرير وربطوا رأسه برباطٍ جلدي، ووضعوا بين أسنانه عضاضة مطاطية.
أشار لهم الطبيب بالخروج، ثم اقترب من سيف وقال بنبرةٍ حزينة

- يا ريت تعتبرني صديقك... وتتكلم معايا بصراحة بعد كده، علشان مصلحتك.

كانت عينا سيف معلقتين بيوسف، الذي جلس في ركن الغرفة ممسكًا رأسه بين يديه، وجهه شاحب كأن الألم يصيبه هو الآخر.
دخل الممرض يحمل الجهاز، وضعه إلى جوار السرير وخرج.
تنهّد الدكتور فؤاد وهو يراجع التوصيلات، ثم قال بصوتٍ مكسور

- سامحني يا سيف، بس ماعنديش حل تاني.

انطلقت شرارة الكهرباء، فارتجّ جسد سيف كأنه يُنتزع من الحياة.
عروق رقبته بارزة، وجهه أزرق، ودموعه امتزجت برغوة فمه.
وفي الزاوية المقابلة، كان يوسف يصرخ بلا صوت، كأن التيار يعبره هو الآخر. حين انتهت الجلسة، صاح الطبيب في الممرضين

- فكّوه!

خرجوا، وظل فؤاد ينظر إلى سيف للحظات. اقترب منه وهمس

- نفسي المرة الجاية... تتكلم معايا بصدق.

خرج الطبيب وأغلق الباب. تاركا خلفه، سيف يلهث، والدموع تغمر وجهه وجسده يرتجف. رفعا عينيه نحو يوسف، الذي نهض يضرب كفّيه على حافة السرير وهو يصرخ بعصبيةٍ مكتومة

- غبي! استفدت إيه؟ الكهربا دي بتدمرك!
أنا مش هقدر أستحملها تاني يا سيف!

ثم جلس على الأرض، يمسك رأسه ويهمس بصوتٍ باكٍ

- جرب تسمع كلامي... مش هتخسر حاجة.

رفع سيف رأسه بصعوبة، صوته واهن متقطع

- أمشي اطلع بره... أنا مش خايف منك... ومش مصدّ...

لكنه لم يُكمل. سقط جسده على السرير، فاقد الوعي، بينما ظل يوسف واقفا يحدق فيه بعينين مليئتين بالهلع، كأن ما تألم منه سيف... كان يسري في عروقه هو أيضًا.

— ✦ —

المواجهة

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07
الزمان 8 فبراير 2016

بدأ جسد سيف يتحرك بعنف، كأنه يغرق ويصارع للبقاء. فجأة شهق شهقة قوية كأن رئتيه تبتلعان هواء الغرفة كله، ثم جلس يلهث على السرير، متصببًا عرقًا. لم يكد يفتح عينيه حتى ظهر أمامه يوسف بسرعة، اقترب منه وقال بصوتٍ مفعم بالقلق

- أخيرًا فوقت! الحمد لله... كنت قلقان عليك،
عارف إنّي قدرت أنقذك من الموت بمعجزة؟
كنت هتموت جوه العربية، بس أنا اللي طلعتك منها.

كان وقع الجملة على سمع سيف كصفعةٍ باردة، كأنها ترددت داخله من قبل. تراجع إلى الوراء برأسه، وكأنه رأى شيطانًا أمامه، وصاح بعصبية

- إنت لسه هنا؟! غور في داهية!

رد يوسف بعصبية مكبوتة

- هو إنت مش مصدقني ليه؟
بص أنت لازم تفتكر، نبدأ منين؟
إنت أصلًا مش فاكر شكلك، صح؟

قال سيف بنبرة حادة وهو يحاول أن يجلس باستقامة

- يا أخي أنا مش فاكر اسمي، هافتكر شكلي إزاي؟

يوسف وهو يتجه نحو حمّام الغرفة

- تعالى ورايا، هوريك حاجة.

سيف بتعبٍ وارتباك

- إنت مين أصلاً؟ وبتعملوا معايا كده ليه

يوسف من داخل الحمّام، صوته يعلو، يتردد مع صدى الجدران

- تعالى بس.

اقترب سيف مترددًا، خطوته بطيئة على البلاط الأبيض البارد الذي يعكس ضوءًا باهتًا من اللمبات الطويلة، وصوت الماء المتساقط من الصنبور يملأ الجو رتابة خانقة.

قال يوسف بصوتٍ ثابت

- مالك؟ اتسمرت كده ليه؟ تعالى شوف... مين ده؟

اقترب سيف أكثر، حتى واجه المرآة.

وفي لحظةٍ توقّف الزمن.

رأى صورتين منه، متطابقتين حتى في أدق التفاصيل: شعره، عينيه، والندبة فوق حاجبه الأيمن.

إحداهما انعكاسه في المرآة، والأخرى تقف بجواره.

كان يوسف الذي يُحادثه، نسخةً منه، لكن بلونٍ أزرق باهت، ولا يظهر له أي انعكاس في المرآة.

البرودة سرت في أطرافه، والتنميل شل أصابعه.

أسند يده على الحائط حتى لا ينهار.

يوسف، بابتسامة انتصارٍ غريبة، قال بحماس

- شوفت؟ حتى أنا واخد نفس شكلك... بنفس اللبس... حتى مكان العملية! مع إن المفروض لما مت، مكنتش كده.

سيف بصوتٍ خافت

- ميت؟ ميت إزاي يعني؟

يوسف بهدوء قاتل

- لأ... دانت اللي تجاوب على السؤال ده، ما هو إنت السبب.

ظهر الرعب على وجه سيف، خرج من الحمّام بخطواتٍ مرتجفة، وجلس على حافة السرير واضعًا يديه على فمه، جسده كله يرتعش وهو يقول

- دا يا عفريت... يا إما أنا مجنون!
ليهم حق يجيبوني هنا... ليهم حق يكهربوني!

اقترب يوسف منه، وقف أمامه مباشرة وقال بصوتٍ هادئٍ حازم

- إنت مش مجنون، ودي مش تهيؤات. أنا قدامك فعلاً...

سيف أدار وجهه ناحية الجدار، الدموع تنهمر من عينيه، نفسه يتسارع، صوته يرتجف وهو يتمتم

- بتكلم مع نفسي... وشايفني قدامي... هو ده الجنون بعينه.
أنا أتجننت... عندهم حق.

اقترب يوسف أكثر، نظر في عينيه مباشرة، وصوته امتلأ بالصدق والرجاء

- يا سيف... أنا يوسف، أخوك. أنا موجود قدامك فعلاً، وإنت مش بتكلم نفسك.

مدّ يده ليمسك كتفيه... لكن يده اخترقت جسده كأنها دخان. تجمد سيف في مكانه، جسده يرتعش بعنف، ودقات قلبه تصطدم بجدار صدره حتى كاد يسمعها. لمسة يوسف كانت كالكهرباء تسري في عروقه. تراجع يوسف خطوة، لكن ذراعيه بدأتا تتلاشيان أمامه.
ضغط سيف على أسنانه بقوة حتى كادت تنكسر، وارتعاش جسده ازداد، وارتفع سود عيناه حتى لم يبقَ منهما إلا بياضٌ ناصع، وبدأ فمه يُخرج رغوة بيضاء كثيفة.

وقع أرضًا في نوبة صرعٍ عنيفة، جسده ينتفض كالمذبوح، قبل أن يغيب عن الوعي. عاد الصمت إلى الغرفة، لا يقطعه إلا صوت قطرات الماء المتساقطة من الحمّام، كأنها تعدّ أنفاسه الأخيرة.

— ✦ —

أنا شبح؟

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07
الزمان 8 فبراير 2016

كان الرعب الذي اجتاحني يفوق أي وصف، حين حاول ذلك الكائن الشيطاني أن يلمسني. كان حقا نسخة مني، لكنه كان شبح شعرت بيده تخترق جسدي كما يخترق الدخان الضوء، فتجمّدت أوصالي كأنني تحوّلت في لحظة إلى لوحٍ من الجليد. قبل ان تصعقني الكهرباء، نعم فعندما لمسني، سار في جسدي تيار عنيف. وقف شعري، وتقلّص جلدي، وتكوّنت على سطحه دوائر صغيرة كجلد الإوز. غير أنّ أكثر ما أرعبني لم يكن البرودة، بل الإحساس الفجائي بالعجز الكامل عن الحركة أو النطق، كأن أحدهم انتزع مني إرادتي واستولى على جسدي. لم أعد أفرّق بين الحلم والواقع؛ امتزجا في فوضى واحدة قاتمة. اهتزّ جسدي ثم بدأ يسقط، لكن المسافة بيني وبين الأرض بدت لانهائية، كأنني أهبط من طائرة بلا مظلّة، أرى الأرض تقترب ببطء شديد، والزمن نفسه توقّف.

وفجأة، اخترق صدري هواء حادّ كطعنة... شهقة طويلة أشبه بعودة الغريق إلى الحياة،

ثم ألم طاعن في صدري، وظلام مطبق ابتلعني تمامًا.

ثم لم أعد أشعر بجسدي، فقط الفراغ... قبل أن يبتلعني ظلام كثيف.

حين انحسر الوجع، وجدتني أفتح عيني بصعوبة،

فرأيت الشبح الذي يشبهني واقفًا عند الباب، موليًا ظهره لي.

وفي اللحظة نفسها، انفتح الباب ودخل الدكتور فؤاد.

سمعت الشبح يقول ببرودٍ عجيب

- حمد الله على السلامة يا دكتور فؤاد، كويس إنك رجعت.

كانت الدهشة مرسومة على وجه الطبيب، وتجمّد مكانه لحظة، ثم أجاب متردّدًا

- الله يسلمك يا سيدي... إيه؟ افتكرتني دلوقتي؟

لم أصدق ما أرى، وصحتُ وأنا أقترب من الطبيب

- صدّقتني دلوقتي إنه موجود؟!

التفت الشبح إليّ بنظرةٍ خاطفة، ثم عاد يجلس على السرير في هدوءٍ غريب وقال للطبيب

- مش عايز تسلّم عليّا؟ عندك حق.

اقتربت أكثر من فؤاد، وصحت وأنا على وشك الانهيار

- إنت بتكلمه هو! ده شبح، كلّمني أنا!

لكن الطبيب مرّ بجسده من خلالي، نعم... من خلالي، كأنني لم أعد سوى هواءٍ كثيف لا يُرى. أحسست بالرعب يسري في عروقي،

بينما رفع فؤاد يده إلى وجهه، يمسحه بتوتر وقال مخاطبًا الشبح

- أنا عارف إنك عاقل... يمكن أعقل مني أنا شخصيًا. يمكن بتشوف ناس إحنا ما بنشوفهمش. بس...

قاطعه الشبح بصوتٍ مرتفع

- بس إيه يا دكتور؟ لو مصدق كده، كنت ليه بتكهربني كل شوية؟!

ردّ الطبيب بانفعال

- يا ابني جلسات الكهربا دي علاج، مش عقاب! وبعدين تصرّفاتك كلها مش منطقية، تعمل إنك مش عارفني، وتقول إني بلعب عليك، وتنكر معرفتك بنادية رغم إنك انت اللي جبت سيرتها قبل

كده!

إنت كده بتشككني في نفسي يا سيف!

ضرب الشبح كفّه بحديد السرير وقال بعصبية

- اللي كان بيكلمك المرة اللي فاتت كان سيف يا فؤش!

كان المفروض تفهم! ... إن يوسف هو اللي بيشوف نادية.

سيف لسه راجع من غيبوبة، وصدقني والله، هو فعلاً مش فاكر حاجة! ده كأنه أول مرة يشوفني.

رفع د. فؤاد نضارته ببطء وقال بهدوء فيه عصبية مكبوتة

- انتوا الاتنين واحد يا يوسف... مافيش سيف، سيف مات من زمان، أنت كتب كده بخط إيدك في الدفتر، بلاش الحركات دي.

صرخ الشبح بانفعالٍ هادر

- محدش مننا مات! أنا واقف قدامك أهو! آه، ده جسم سيف، بس أنا اللي جواه. وسيف أهو، قدامك، لسه معدي منك! حسّيت بيه لما هزّيت راسك، صح؟

ارتجف الطبيب فعلًا، وتراجع خطوة للخلف وهو يقول بصوتٍ مضطرب

- مافيش حاجة في العلم تفسّر الكلام ده... مافيش كده!

ابتسم الشبح بمرارة وقال بهدوءٍ قاتل

- شكلي كنت غلطان لما افتكرت إنك ممكن تساعدني.

أنا عايز أمشي من هنا.

قال الطبيب وهو يحاول استعادة سيطرته

- اسمعني يا سيف، أو يا يوسف... أياً كنت.

أهدى، كل اللي بنعمله هنا في مصلحتك. العلاج جاب نتيجة

ممتازة، وظائف جسمك رجعت كويسة،
خلينا نكمل، ومشاكلك كلها هاتتحل مع الوقت.

- مفيش مشاكل بتتحل.

جلس الطبيب وأخرج جهاز تسجيل صغير ونوته من جيبه وقال بهدوء

- إحنا هنسجل الجلسة دي، ماشي يا يوسف؟

لم يمانع. سمعت صوت جهاز التسجيل يشتغل، وصوته يقول في خلفية الصمت

- الجلسة رقم واحد، مريض رقم 07، الاسم سيف عبد الله زهران... أو يوسف.

ابتسم بخفة وهو يردد الكلمة الأخيرة، ثم اقترب وقال

- يوسف، هسألك سؤال بسيط... آخر حاجة فاكرها قبل الحادثة أو قبل ما تيجي عندنا هنا إيه؟

— ✦ —

حين سألني الطبيب عن آخر ما أتذكّره قبل مجيئي إلى هنا، أغمضت عيني، كأن الظلام وحده قادر أن يعيد ترتيب الذاكرة وتلاحقت أنفاسي، وكأنها هي من تذكّرني...
في البداية لم أكن أتذكر فعلا أي شيء سوى اسمي، يوسف.
أدركت أني تذكرت سيف عندما رأيته في غرفة العمليات،
وتذكرت أبي عندما سمعت صوته ورأيته قبل دخوله الطوارئ.
ثم تذكرت حادثة السيارة، عندما تحدث عنها الطبيب.
غير ذلك كان هناك ذكريات أشعر أنها ليست لي.
تدفقت صورٌ مبعثرة لذكريات كثيرة طفلان يتشاجران، جرس باب، ضوء أبيض، ضحكة ندى، صرير فرامل، لطمة أبي، صفير جهاز، رائحة المطهّر... ثم العتمة

- فاكر حاجات كتير... ذكريات كتير جدا بس مش عارف لها ترتيب. ومش قادر اربط بنها، كل حاجة دخلة في بعض، زي حلم طويل، ذكريات بشوفها بوضوح وبسمعها.
- بتشوفها؟ وبتسمعها أزي؟
- زي ما أكون كنت عايش في نص حلم ونص حياة أو ممكن تكون الذكريات دي، مش بتاعتي

مال الطبيب برأسه قليلًا وقال بهدوء

- وده اللي هنحاول نفهمه مع بعض ... إحنا بين عالمين، وعلشان نعرف أنت من أنهي واحد فيهم، لازم نسمع كل اللي جواك للآخر. يا...

سكت قليلا قبل ان يكمل بمكر

- يا... زي ما تحب، هقول لك يا يوسف.

أغلق جهاز التسجيل وقال بهدوء

- عايز تقول حاجة تاني

قلت والحيرة تملؤني

- أنا عايز أشوف بابا وماما. وعرفت أنك مانع الزيارة

نظر فؤاد في ساعته وقال

- مين قال إني مانعها؟ أنا بس بنظمها. بكرا الصبح هتلاقيهم هنا.

ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهي وقالت

- بجد يا دكتور؟ طب لو ينفع أحلق دقني قبل ما ييجوا. مش عايزهم يشوفوني كده. ولو ممكن نتقابل في الجنينة بدل الأوضة دي.
- أكيد، الزيارة بتكون في الجنينة. محتاج حاجة تاني؟
- كاب... عشان شكل راسي بايخ، وسيجارة لو سمحت.

ردّ فؤاد بابتسامة صغيرة

- الكاب موجود، إنما السجاير انسى خالص. دي مستشفى، مش قهوة.

— ✦ —

في هدوء دون الطبيب بعض الكلمات في ملاحظاته، قلب بين أوراقه دون أن يرفع عينيه عن الورق، بينما شعرت أن الغرفة كلها تميل قليلًا كأنها تسبح في سائل بارد. صوته ظل يتردد في رأسي حتى بعد أن غادر.

- كما تحب، سأناديك بيوسف

بعد أن خرج الطبيب، حاولت تتبع أيا من ذكرياتي. تفلتت من بين أصابعي، جميعها تهاوى؛

ظلت ذكرى واحدة فقط. فرضت نفسها، لم تتشكل أمامي، بل سحبتني إليها. كان يجلس على حافة السرير، ومفاتيح السيارة في يده.

بأيد مرتعشة، كان يكتب شيئًا ما في دفتره القديم، سألته عن حاله، فقال دون أن ينظر لي

- مش قادر أنام، جاهز نخرج بالعربية شوية؟

قلت له ضاحكا

- طيب نخرج الصبح، علشان بابا.

ابتسم ابتسامة صغيرة وقال

- هو لازم يعرف كل حاجة؟ خليها سر بينا.

وبعدين انهارده عيد ميلادي، وعايزه يكون يوم مميز.

ركب سيف في الكرسي بجانب السائق، وأنا توليت القيادة.

تحركت السيارة ببطء. استند برأسه على المقعد، وقال بحماس

- فاكر وإحنا صغيرين لما كنا بنجري في الشارع ده نتسابق لحد آخره ونرجع؟

ضحكت وقد أدركت مراده

- أيوه، كنا بنتراهن اللي يوصل الأول يفكر في الحكم، والخسران ينفذ.

ضحك ضحكة قصيرة جدًا وقال

- جاهز... دلوقتي.

أنا جاهز من زمان... ولا نسيت؟

- الحكم إيه؟

- لو اتكتب لينا النجاة، اللي هايعيش... هيكون يوسف.

كانت هذه الجملة على لساني أنا.

أنا من حكمت. كنت أظن الأمر مستحيلا وانطلقت السيارة، مع سبق الإصرار؛ تريد حصد روح أحدنا... أو كلينا. تبددت الذكرى كالدخان، وساد الصمت. غرق كل شيء في سكونٍ تام.

حين فتحت عيني، لم أكن متأكدًا إن كنت عدت للحاضر أم أنني ما زلت داخل الذكرى.

— ✦ —

بعد أن خرج الطبيب وأغلق الباب ظل الشبح صامتا لحظات، وكأنه يستعيد ذكريات مؤلمة.

ثم التفت الشبح نحوي وقال بنبرةٍ هادئة تشوبها السخرية

- إيه رأيك؟ جربت الإحساس بتاعي؟

تشوف نفسك قدامك... ومش عارف إنت عايش ولا ميت؟

قلت وأنا أرتجف:

- أنا عايش طبعًا... وإنت اللي ميت!

ابتسم ابتسامة قصيرة فيها وجع وقال بنبرة مبحوحة.

- ما أنا عارف إني ميت...
بس اللي أنت مش عارفه إنك السبب في موتي يا يوسف.
تراجعت خطوة للخلف، وقلت بتلعثم
- يوسف مين؟
أشار إليّ بأصبعه وقال بصرامة تقطع الهواء
- إنت يوسف... أخويا التوأم. والجسم ده بتاعك، مش بتاعي.
في تلك اللحظة، أحسست أن الأرض انسحبت من تحت قدمي.
لم أعد أشعر بثقل جسدي... كأنني فقدت الجاذبية.
جلست ببطء على طرف السرير، لكن المرتبة لم تنضغط تحت وزني، ببساطة لأنني بلا وزن. همستُ بصوتٍ متكسّر
- طب... إزاي إنت اللي موجود في جسمي؟
اقترب يوسف الاخر خطوة، عقد ذراعيه أمام صدره وقال بثباتٍ غريب
- يمكن دي أول مرة أشوفك كده، بس من يوم الحادثة وأنا ساكن في جسمك. معرفش ليه... يمكن علشان إنت اللي قتلتني.
قلت مذهولًا:
- قتلتك؟ إزاي؟ مش كنت بتقول حادثة؟
ابتسم ابتسامة باهتة وقال:
- آه، حادثة... بس مع سبق الإصرار والترصّد.
ارتفع صوتي وأنا أقول
- يعني كنت قاصد أموتك؟
قال بهدوءٍ قاسٍ
- كنت قاصد تموتنا إحنا الاتنين.
وضعت يدي على رأسي وقلت بحيرةٍ يائسة
- أنا مش فاكر حاجة!
التفت بحدة وقال بمرارة:

- أيه السهولة دي؟ فقدت الذاكرة علشان تهرب من اللي عملته؟ طول عمرك تهرب من المسؤولية، وأنا اللي أصلّح وراك! بس المرة دي... كان فيه حكم لازم أنفذه.

- حكم إيه؟

اقترب أكثر حتى صارت أنفاسه تختلط بأنفاسي، وقال بصوتٍ خافتٍ مخيف:

- لو اتكتب لينا النجاة... اللي يعيش يكون يوسف.

صمتٌ ثقيل سقط بيننا، كأن الغرفة انكمشت على أسرارها.

قبل أن أنطق بشيء، طرق أحد الممرضين الباب ودخل بهدوء

- أستاذ سيف، جاهز علشان تحلق دقنك.

التفت يوسف الاخر إليه بابتسامةٍ وادعة وقال

- دقيقة واحدة... وهاجي.

وحين خرج الممرض، نظر إلي بعينين فيهما مزيج من الحنين والحذر، وقال بهدوءٍ صادق

- بابا وماما جاين بكرا. خليك معايا... يمكن تفتكر حاجة. ونكمل كلامنا بعدين.

— ✦ —

الزيارة الأخيرة

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07
الزمان 9 فبراير 2016

كان الهواء بارد كأنه قد أقتطع من الصقيع ذاته، ثقيل، لزج لا يكاد يسمح لجسده الضعيف أن يمر، كان هذا هو أحساس يوسف في الممر المؤدي إلى الحديقة الخلفية لمستشفى د. فؤاد حيث تتم الزيارة.

الجدران باهتة، والنوافذ تلقي بضوء شاحب رمادي لا يكاد يضيء من أحساسه بالرهبه، كان يمشي وكأنه يتعلم المشي، وعيناه تمسح الوجوه بحثا عن أجابة،

حين خرج إلى الحديقة شعر وأنه قد ولد آلان، لا يكاد يتذكرى سوى، ما يراه في أحلامه، وحواراته مع ذلك الشبح وفي الحديقة حيث يتحرّك المرضى ببطء، كأنهم أشباح تجرّ أقدامها بحثًا عن، ظلالها القديمة.

جلس هو على مقعد خشبي، يراقب الباب

المغلق، وفي داخله شيء أشبه بالصدى... يسمع الأصوات ولا يعرف من أين تأتي حتى رأهم يدخلون المكتب. كان يراهم من خلف الزجاج من مقعده بالحديقة، وكان يسمعهم بوضح، قد أعتاد عليه

— ✦ —

في المكتب حين فتح الباب ببطء، ودخل عبد الله وسناء يتبعان د. فؤاد، الذي كان صوته حادًا حين قال

- يعني إيه تخرجوه؟ ده مش ممكن أبدًا، الحالة لسه غير مستقرة، وممكن تحصل له انتكاسة في أي وقت.

سناء قاطعته بحدة أم فقدت صبرها.

- تف من بقك يا دكتور، متقولش كده. أنا ابني هايروح معايا، مش هاسيب يوسف في المستشفى دي يوم واحد كمان!

عبد الله حاول تهدئة الموجة

- يا دكتور، يوسف فاق، وبقى كويس، سيبنا نجرب نرجعه البيت. ولو حصل أي حاجة، أنا بنفسي هاجيبه لك تاني.

لكن الطبيب ضرب المكتب براحة يده

- أنت نسيت إنك وعدتني إن محدش هيخرجه إلا لما أقول إنه خف؟ وأنا بقولك لأ، لسه بدري.

تقدّمت سناء خطوة، وارتجف صوتها وهي تمسك بحقيبتها

- وعد إيه؟! أنا عايزه أبني يا عبد الله، الواد خسّ النص، وصحته بتروح، العلاج مش كده... مش بالعافية!

ساد صمت ثقيل. كان الطبيب ينظر إليهم بعين الخبير الذي يقرأ انهيارهم بصمت. ثم قال ببرودٍ مقنع بالشفقة

- هيقعد تحت الملاحظة أسبوعين كمان، هنبداء خلالهم نقلل جرعة العلاج تدريجي، وبعدين هيخرج على مسؤوليتكم.

تناول عبد الله الملف ووقع الورقة ببطء. صوت القلم على الورق بدا ليوسف كصريرٍ يخدش رأسه من الداخل،

لكنه أحب ذاك الصرير.

لم يسمع باقي الحديث. كان ينظر إليهم من بعيد كأنهم مشهد على شاشة تليفزيون بعيدة، يسمعها بوضوح ولا يستطيع لمسها.

حين خرجوا من المكتب، ظل هو في الحديقة. جالسا على مقعده الخشبي تحت شجرة عارية، إلا من بعض وريقات، تقاوم في بسالة، برودة الطقس ورياح فبراير، ظل جالسا وعيناه متعلقة بنباتات الحديقة وكأنه يلتهمها بنظره.

اقترب منه سيف بهيئته الشبحية، أو ربما هو الذي اقترب من نفسه...

لم يعد يميز أيهما المتكلم وأيهما الصورة، فبادره يوسف في الجسد

- أيه الأخبار؟ افتكرت حاجة؟

سيف في هيئته الشبحية

- شكلهم مكانوش غرب. حسيت إني أعرفهم... ومرتاح لهم، بس مش فاكر أساميهم.
- مع الوقت هتفتكر كل حاجة.
- عايز أقولك حاجة.
- قول يا معلم.
- أنت بتقول إن أنا كنت السبب في موتك، صح؟
- أنت شايف إيه؟
- يمكن تكون ميت بجد، لكن روحك لسه موجودة، وساكنه جسمي...

أنا رأي تعيش زي ما أنت. وكمل حياتك في جسمي.

ابتسم يوسف ابتسامة شاحبة

- يا ريت كان ينفع، أنا مش هاعيش على حساب حياتك يا يوسف

كانت عيناه تسبحان في الفراغ البعيد، كأنهما تبحثان عن مخرجٍ من الجسد. في تلك اللحظة شعر بخفةٍ غريبة في صدره، كأن شيئًا بداخله يُفكّ عُقده ببطء، بدأ يشعر بعدم الإنتماء لهذا العالم، لتلك المشاعر، كان يشعر بقوة لا تتناسب مع هذا الجسد الهزيل، ضوء السماء الأبيض فوق رأسه بدأ يخفت، والأصوات من بعيد تتداخل حتى صارت همهمة واحدة بلا معنى، ثم قال في سره

- ربما حان وقت الرحيل... الجسد لم يعد لي، وأنا لم أعد له.

أغمض عينيه، وفي الفراغ بين النبضة والنبضة، شعر بأنه يبتعد عن الجسد يتحرر من هذا القيد، يتذكر حقيقته ... يعود إلى نفسه قبل أن يذوب من حوله الفضاء كملح ذائب في الماء.

— ✦ —

وعي مبعثر

القاعة نصف مضاءة، رائحة المطهر تملأ الجو، والأصوات تتهامس في الخلفية مثل أصداء تحت الماء. جلس يوسف على الكرسي المعدني في منتصف الدائرة، أمام الطبيب الذي كان يكتب ملاحظاته دون أن يرفع رأسه. الوجوه المحيطة به كانت شاحبة، ملساء كالأقنعة. كلّ من في القاعة يراقب صمته، كأنهم ينتظرون أن يتذكّر. د. فؤاد وهو يبتسم ابتسامة خفيفة

- بدأت تفتكر حاجة؟
- مش عارف... فيه وجوه بتعدي جوا دماغي وذكريات غير مكتملة كأنها حلم، بعدين كل حاجة بتسود.
- كأنها حلم ولا بتحلم بالحاجات دي فعلا؟
- لأ... هي بتحصل وأنا صاحي.

رفع الطبيب رأسه لأول مرة. نظراته كانت فاحصة، كأنها تبحث عن فتحة في جدار وعيه.

- واسمك؟ أفتكرت أسمك؟
- ... يوسف.
- مش سيف يعني؟

صوته اختنق عند الاسم الثاني، وشعر بوخزة باردة تمر في مؤخرة رأسه.

- سيف مات

كل شيء حوله بدأ يهتز كصورة قديمة تحاول أن تتذكر نفسها. نظر إلى الزجاج المقابل، فرأى وجهه غريبا، عينيه لا تتطابقان مع حركته.

وحين آمال رأسه قليلا، لمح في الانعكاس ظلا آخر يقف خلفه، ساكنا... لا يتحرك، لا يرمش.

مد يده نحو الزجاج، فارتجف الانعكاس، وتبددت الصورة.
لكن الظل بقى ثابتا، كأنه ينتظر إذنًا بالكلام.
يوسف (هامسًا)
- انت مين؟
لم يسمع رد، لكن جاءه صوته من الداخل بصدى بعيد
- أنا يوسف حين تنسى من تكون.
ارتبك، التفت خلفه فلم يجد أحدًا. الطبيب ما زال يكتب، لم يلحظ شيئًا. عاد بصره إلى الزجاج، فوجد الظل يختفي ببطء... تاركا خلفه ضبابا رماديا في مكان الرأس. جلس يوسف يحدق في اللاشيء. الذاكرة تفتح أبوابها نصف فتحة فقط، تريه ما تريد وتخفي. ما تخاف أن يراه. رأى وجه ندى للحظة، ثم وجها آخر يشبهه... يوسف أخر، يبتسم له من وراء الماء.
رفع رأسه للطبيب بصوت واهن
- دكتور، أنا حاسس إني مش لوحدي.
الطبيب (دون أن ينظر): طبيعي. كلّنا جوانا حدّ تاني.
ابتسم الطبيب ابتسامة قصيرة، لم يدرك يوسف معناها.
لكنه أحس أن الجملة لم تكن مجرد كلام عابر.
كان فيها نبوءة صغيرة... نبوءة عن الظلّ الذي بدأ يستيقظ.
أغلق سيف عينيه. في داخله، كان يسمع صوتا يشبه أنفاسه لكنه لا يخصه. صوت يقول له بهدوء قاتل
- اترك الأمر لي هذه المرة... أنا أقدر على النجاة أكثر منك.

— ✦ —

مناظرة الظل

المكان لا مكان

الزمان 9 فبراير 2016

كان الفضاء من حول يوسف ساكنا... بلا لون، بلا جدران. ولا أرض. كل شيء ضبابي، يطفو بلا ثقل ولا صوت،
الهواء نفسه كأنه بحر من ضوء باهت يتقلب في بطء.
جلس يوسف على أرض بلا ظل، تردد صوته، كأنه يأتي من داخله
لا من شفتيه، وحين تحدث خرج صوته كالصدى

- أنا فين؟

جاءه الرد من خلفه، صوتا رخيما، يعرفه

- أنت في النص.

دايما كنت في النص... لا فوق ولا تحت، لا ميت ولا حي.

استدار يوسف ببطء.

- أنت مين

لم ير ظلا، بل جسدا يتكون من لهيب أزرق بارد ابتسم ابتسامة باهتة، لكنها ارتسمت على ملامحه **شرا أزليا** .تحدث بصوت **رخيم**، اهتز له الفراغ وكأنه صدى قديم

- أنت تعرف من أكون يا يوسف، أنت من فتح لي الباب، عندما مددت يدك العاجزة في عرض البحر، وتمنيت أن يعود الميت وأن يزول الحي الضعيف.
- أنا مديت ايدي لأخويا سيف لكن انت مش هو، إنت مين؟

كان جسده الأزرق يتحرك بتموج كالضباب، لكن في عينيه بريق قديم، بريق القوة، أقترب من يوسف وقال

- أنا ثمن نجاتك من الذنب. أنا أقدم منك، ومن أجدادك، كنت أنتظر الفرصة لأجرب حياة البشر، وأنت وافقت

صمت ثقيل تمدد بينهما، كأن الكلمات أصبحت ثقيلة على الهواء، تقدم يوسف خطوة، شعر أن الأرض تتنفس تحت قدميه. وارتجف جسده، شعر بالبرد يتسلل إلى داخله كأنه يسمع الحقيقة لأول مرة. رفع رأسه ببطء. كانت قد تشكلت صورة لذكرى قديمة. رأى نفسه طفلا صغيرا، يرتعد من الخوف، جالسا أمامه.

تحرك الظل حول الطفل في حركة مسرحية، ثم قال بصوت عميقا

- أنت كنت طفل ضعيف وجبان، بتخاف تتكلم، بتخاف تواجه الناس، مكنتش قادر تعيش، وأنا إديتك فرصة تعيش.

بدأ الضوء يتبدل، الرمادي يتحول إلى سواد كثيف، تتخلله ومضات تشبه الصاعقة، والذكريات تتلاحق.

حادث السيارة، صوت الأم، البحر، وجه سيف، أمواج عالية ثم الصمت.

قال يوسف برهبة والذكريات تطعن رأسه

- افتكرتك، أنت الجني اللي شوفتك أول مرة في المستشفى، كنت فاكرك روح سيف... أخويا

الظل

- أنت ساعتها كنت طفل خايف متردد.

دار الظل حول نفسه فتبددت صورة الطفل وتكونت أمواج من الدخان الرمادي، تتلاطم أمامه وصورة سيف الصغير يصارع الأمواج قبل أن يبدأ في الغرق،

تردد يوسف قبل أن يمد ذراعيه من جديد في محاولة يأسة، جاء صوت الظلّ بنبرة باردة

- سيف مات قدامك، غرقان في البحر. وأنت كنت خايف يعرفوا إنك السبب،

حاولت ترمي نفسك في البحر لما أتأكدت أنه خلاص غرق، كنت بتتمنى يرجع، وأنا رجعتهولك.

يوسف، بصوت يغلبه الانكسار

- أنت شيطان. أنت أوهمتني إنك سيف؟ وحكمت عليا أعيش باسمه؟

الظل يرفع يداه في حركة مسرحية بلامبلاة.

- عايز تقول إنك لسه فاهم ده دلوقتي... توء توء توء

أنت كنت بتتظاهر بالسذاجة يا يوسف، كنت محتاج تصدق علشان تعرف تعيش.

- أنت كدبت عليا

أهتز جسد الظل وازداد حجمه،

صانعا موجة في الضباب المحيط بهما، وتردد صوته بغضب حقيقي.

- أنا مش محتاج أكدب يا يوسف. أنا أنقذتك من الموت.

المفروض تشكرني، ده أنا سبب نجاتك. يا أخي

- بس حكمت عليا أعيش سيف، وأقتل يوسف بنفسي

- ما أُجبرتكش على اسم سيف، أنا أديتك قوته. وكنت بحميك

- تحميني من إيه؟

- من ضعفك ... ومن خوفك.

صمت يوسف قليلًا، ثم قال بصوت مكسور

- أنا مش ضعيف... أنا بس مكنتش لاقي نفسي. ما أخدتش الفرصة.

ضحك الظل ساخر

- لو ما كنتش ضعيف، ما كنتش قدرت أسيطر عليك، كنت خلصت مني من زمان.

يشعر يوسف بفقدان الأمل فيقول بوهن
- حاولت مرة ... وممكن أحاول تاني.
الظل يفهم مقصده يبتسم أبتسامة باهتة، يدور حول نفسه دورتين، ثم يعقد ذراعيه أمام صدره قبل أن يستقر أمام يوسف
- هو ده الحل بتاعك، عايز تنتحر؟ مش مهم، أنت ممكن تموت، أما أنا ...مش بموت زيكم
ضحك بصوت عالي، لم تكن ضحكة من سخرية، بل من معرفة
- أقولك حاجة ممكن متصدقهاش، بعد الحادثة عشت مشاعرك كلها، الحنين، الخوف، العجز، الشعور بالذنب، والرغبة في الرجوع لنفسي، ... ليوسف
ثم أكمل الظل بعد ضحكة سخرية
- تصدق، أنا كمان فقدت الذاكرة، ... شوية!
بعد الحادثة... مكنتش فاكر حاجة.
تمدد جسده، وكأنه يلوم نفسه وارتفع صوته بغرور
- إزاي أنا أنسى زيكم!
أنا اللي عندي حكمة وتجارب قرووون ...
ثم أكمل وهو ينكمش ويشير ما بين السبابة والإبهام
- كنت فاكر نفسي يوسف. ذي ما كنت بتندهلي إنت، مكنتش عارف أنا مين، كنت مصدق كدبتنا القديمة.
يوسف، غاضبا
- مكانتش كدبة بالنسبالي، أنت سرقت حياتي... سرقت جسمي!
الظل
- أنا ما سرقتش، كان إتفاق بينا
واحنا الاتنين احتجنا بعض. أنا خليتك تعيش أقوى وإنت إديتني فرصة أعيش إنسان.

أغمض عيناه وأخذ نفسا عميقا وأكمل بنشوة المنتصر
- حياتكم رغم أنها قصيرة بس جميلة.
عرفت كل حاجة عنكم، تصدق ليكم حق تحبوا الحياة
ثم أكمل بإلقاء مسرحي
- ما أحلى أن تعيش يوسف
يوسف بصوت حاسم
- إبعد عني. خليني أعيش حياتي. من حقي آخد فرصتي.
- تمام... خلينا نلعبها زي زمان.
نتراهن والخسران... يفضل ساكت.
- ساكت إزاي! ... وايه الرهان؟
الظل
- هسيبك تواجه.
تفتكر... تحاول تخرجنا من هنا.
لو قدرت... واحد بس فينا له حق الوجود.
والتاني... يسكت خالص، صمت أبدي
يوسف يخفض رأسه، يتنفس بعمق، ثم يهمس بحزن يحدث نفسه
- كفايا رهان يا يوسف. كل مرة أنا الخسران
يقترب الظل منه حتى يكاد يلامس انفه بأنفه وبصوت كالفحيح
- أنا كمان بقول كده، يبقى نساعد بعد ونطلع إحنا الاتنين كسبانين
يوسف برضا يغلبه الانكسار
- أنت عايز مني إيه؟
يدور الظل حول يوسف وبنفس الفحيح هامساً
- ولا حاجة. عايزك تسكت. الصمت هو الطريق الوحيد للخروج من هنا، للنجاة من العلاج، من الكهربا.

الكهربا دي أسواء حاجة أنتوا عملتوها.
بتأزيني فعلاً، بتوجعني.

اقترب الظل منه حتى، صار وجهه يلامس وجهه، واندمجت الظلال في بعض. لم يعد هناك فرق بين الصوت والفكر.

- لما تخرج، خلي وشك عادي... اتكلم قليل، اسكت وابتسم. محدش هيعرف الفرق.

بدأ كل شيء يذوب. اختفى المكان، اختفى الصوت، ولم يبقَ سوى أنفاس متقطعة تتردد في العدم. وكأن الظل قد استقر في الأعماق.

في لحظة الهدوء الأخيرة، بدأ الفراغ من حول يوسف يتلاشى، كأنه يغوص في طبقة أعمق من الوعي. كان آخر ما سمعه يوسف صوت الظل يتمتم من بعيد في همسًا كأنها الوصية

- متحاولش تتكلم طول ما أنا مش موجود. لو أتكلمت هايعرفوا أنك لسه عيان. مش هتخرج.

ثم عم الصمت الكامل.

— ✦ —

الصمت طريق للخروج

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07
الزمان 12 فبراير 2016

الصباح في المصحة يشبه الأمس تماما؛ ضوء رمادي يتسرب من النوافذ العالية، وأصوات خطوات الممرضين تتكرر بنفس الإيقاع كأن الزمن نفسه يعيد المشهد مرارا. جلس يوسف على السرير، ينظر إلى يديه. كانتا ثابتتين على الغطاء الأبيض، خاليتين من الارتجاف الذي كان يفضحه كل صباح.

في عينيه سكونٌ لم يره الطبيب من قبل، ذلك السكون الذي يشبه الهدوء الذي يسبق الانفجار.

دخل د. فؤاد يحمل ملفًا أزرق،

فتحه وهو يبتسم بابتسامةٍ مدروسة:

- ايه الأخبار يا بطل، بتنام كويس يا يوسف؟
- كويس، بنام من غير أحلام.
- تمام. دايما الأحلام أول ما تختفي... بنعرف إن العلاج شغال.

سجّل الملاحظة، ثم نظر إلى يوسف نظرة مختصرة من تحت النظارة وقال

- واضح إنك بقيت كويس قوي. يمكن قريب نبدأ إجراءات الخروج.

يوسف ابتسم... كانت ابتسامة دقيقة جدًا، محسوبة. لم تصعد إلى عينيه، ولم تهبط إلى قلبه.

حين خرج الطبيب، ظل يوسف جالسًا في نفس الوضع،

حتى خفتت الأصوات في الممرّ،

قال من الداخل بصوت لا يسمعه أحد

- قلتلك الصمت دواء.

أغلق عينيه. ورأى نفسه واقفًا في الفضاء الرمادي ذاته الذي واجه فيه

ظله، لكن هذه المرة لم يكن هناك حوار، بل مراقبة.

الظل يبتعد قليلًا في الخلفية، يلوح بيده كمن يسلم الدور لصاحبه.

ابتسم يوسف ابتسامة صغيرة أخرى،

ثم فتح عينيه على الواقع من جديد.

الممرضة تمر أمام الغرفة، تسجل الملاحظات،

تراه جالسا بهدوء وتهمس لزميلتها

- شكله بدأ يتحسن بجد.

في الداخل، كان الظل يضحك بلا صوت.

ضحكة مكتومة، متقطعة، كأنها تخرج من بئرٍ مغلقة.

نهض يوسف، سار ببطء نحو المرآة. الزجاج بارد، لكنه صاف جدا. حدق في عينيه طويلا.

قالت له صورته

- تعلم أن تقلد نفسك جيدا... فالنجاة تحتاج تمثيلا متقنا.

هز رأسه بخفة كمن فهم الدرس، ثم عاد إلى سريره واستلقى بهدوء.

الساعة على الجدار توقفت ثانية واحدة، ثم عادت تتحرك.

في ذلك الفاصل، كان الظل قد أتم خطته، وأقتنع يوسف أن الصمت هو جواز العبور.

— ✦ —

كان لي صديق فيلسوف

المكان مستشفى د. فؤاد - الغرفة رقم 07
الزمان 22 فبراير 2016

هدأت أصوات الأجهزة أخيرا. لم يعد هناك جلسات، قلت جرعات الأدوية.

مرت أسابيع طويلة منذ تلك الليلة التي نطق فيها يوسف للمرة الأولى، والكل كان يتعامل معه كمن وُلد من جديد.

كان يتحدث بهدوء، يبتسم أكثر من اللازم، ويكتب كثيرا في دفتر لا يفارقه.

في البداية ظنوا أن الكتابة نوع من العلاج، حتى بدأت كلماته تتحول إلى أحاديث غريبة عن الروح والخلود والوعي الذي لا يموت، في جلساته الجماعية داخل المستشفى، صار يوسف هو من يسأل الطبيب

هو إحنا بنفكر إزاي يا دكتور؟ المخ بيفكر ولا الروح؟

كان السؤال يثير فضول النزلاء وضيق دكتور فؤاد في الوقت نفسه.

- يا يوسف، خليك في العلاج، الأسئلة دي فلسفية أكتر منها طبية.
- يعني هو الفيلسوف مش مريض زينا؟ ما يمكن المرض هو اللي بيفتح الباب للتفكير. بدأ الجميع يلقبونه بالفيلسوف، حتى صارت الممرضة تناديه ضاحكة

قوم يا فيلسوف، معاد الجلسة.

وذات يوم، سمح له الطبيب بالجلوس في ساحة المستشفى المفتوحة، تحت شمس خفيفة ودفء هادئ، كانت الحديقة ثقيلة على قلبه، وكأنها تضج بأنين المعذبين، كان حوله مجموعة من

المرضى، يستمعون له كما لو كانوا جمهوره الحقيقي، بينما هو يتحدث عن الموت وكأنه شاهد عليه.

- أنا كنت هناك... بين الحياة والموت.

كنت سامع كل حاجة بس مش قادر أتحرك. اكتشفت إن الروح مش جوه الجسد، دي حواليه، زي النور ما بيحيط بالمصباح.

ضحك أحدهم

- يعني إحنا مصابيح؟
- بالظبط... بس في بعضنا النور بيطفي وما بيرجعش.

اقتربت منه ندى، التي كانت تزوره بانتظام منذ أن سمح الأطباء بذلك، وقالت له بصوتٍ خافت

- يوسف، إنت بقيت بتخوف الناس بكلامك ده.
- أنا أخوف؟ لأ يا ندى، أنا بس بقول اللي شفته... يمكن ده يكون سبب في العلاج.

قالت ندى تمازحه،

- ولا تكون أنت لسه محتاج علاج؟

ابتسم يوسف، وقال دون أن ينظر إليها

- العلاج الحقيقي هيكون بعد ما نخرج من هنا

صمتت، وشعرت بأن هذا الذي أمامها ليس هو تماما من أحبته، لكنه يحمل ملامحه وصوته ونظرته.

— ✦ —

ضوء النهار يتسلل من بين الستائر، ينعكس على عيون يوسف التي ما تزال حائرة بين الإدراك والغياب.

يجلس على المقعد المقابل للطاولة، وعلى ركبته كان دفتره الذي

لايكاد يفراقه منذ بدا التعافي، كتب يوسف في دفتره جملة واحدة فقط

- حين تستيقظ الروح داخل الجسد مرتين... تصبح فيلسوفا رغماً عنك.

بينما تقف د. آمال بجوار شاشة تعرض تخطيط الدماغ الأخير. أما د. فؤاد الجبالي، فيجلس في صمته المألوف، يدور قلمه بين أصابعه.

يوسف بصوت متردد

- يعني... أنا لما كنت في غيبوبة؟ كنت موجود فين؟

آمال بنبرة عملية

- غيبوبة يا يوسف... يعني نشاطك العصبي كان شبه منعدم لأسابيع، واللي حصل بعد كده استجابة عصبية نادرة.
إحنا بنسميها شبه وعي ... أو شبه غيبوبة

فؤاد يتنفس بعمق

- أكثر من كده يا آمال، تجربة يوسف تتجاوز الفسيولوجيا.
سؤاله دلوقتي.
مش بيسأل أين كان جسدي؟، لأ ده بيسأل أين كان وجودي؟ ... وده سؤال ميتافيزيقي بامتياز.

آمال بابتسامة ساخرة خفيفة

ديما بنرجع للفلسفة،... مره مع يوسف والمرة دي مع الدكتور فؤاد.

لكن كلام حضرتك عن الميتافيزيقا، يتناقض مع دورنا كأطباء

يوسف بمنتهي الهدوء والثقة

- إسمحيلي يا دكتورة، انا شايف حاجة تانية، في الأمراض النفسية، الطب بيوصف الحالة المرضية، لكن

ما بيفسرش ليه بتحصل. وهنا يبدأ دور الميتافيزيقا اللي بيقول عنها د. فؤاد

مؤكدا على كلامه يكمل د. فؤاد

- تعرفي أصل الكلمة يا آمال؟

من الإغريقية Meta يعني ما وراء، وPhysika يعني الطبيعة. مش غيب، لكن ما وراء الطبيعة اللي نقدر نلمسها.

هي العلم اللي بيبحث في المبادئ الأولى، في الوجود

يوسف يهمس وهو يحدّق في الفراغ

- يعني حضرتك تقصد إني كنت... موجود، بس في شكل تاني؟

فؤاد ينظر إليه باهتمام

- ممكن. في عالم قال إن العقل محدود، لا يستطيع أن يدرك المطلق، لكنه لا يستطيع أن يتوقف عن السؤال عنه.

إنت يا يوسف كنت في قلب السؤال ده، مش في جسمك وممكن مش في الغرفة بتعتك.

آمال مقاطعة بخفة

- بس إحنا مش في الفلسفة يا دكتور، إحنا قدام حالة عصبية معقّدة. الوعي انعكاس لنشاط المخ، مش أكتر.

فؤاد بصوت منخفض كأنه يحدّث نفسه

- أنتي شفتي الوعي ده تحت ميكروسكوب يا آمال؟

نقيس كهرباء الدماغ، أيوه... بس فين بتسكن الفكرة؟ فين يعيش الإحساس؟ فين اللحظة اللي الإنسان يقول فيها أنا؟

يوسف يخفض رأسه، صوته مبحوح

- أنا حسيت إن جسمي كان نايم... لكني أنا كنت صاحي.
كنت سامع حاجات... ومش قادر أتكلم.
زي ما أكون أنفصلت عن نفسي ... وبقيت بتفرج عليه من بعيد.

صمت قصير.

صوت جهاز رسم المخ يصدر نغمة خافتة متقطّعة.

فؤاد ينظر نحوه

ده يا يوسف... هو الميتافيزيقا.

إنك تتأكد من وجودك من غير ما تمتلك جسدك،

تفكر من غير ما تحس، تسأل هل أنا هنا؟...

وتكتشف إن السؤال نفسه هو البرهان على وجودك.

آمال تتنفس بعمق

جميلة جدًا، حواركم الفلسفي. بس في النهاية إحنا قدام دماغ بيشتغل.

وطالما بيشتغل، فالتفسير علمي.

فؤاد بهدوء

- والعلم يا آمال... نص الحقيقة بس.
النص التاني ساكن في السؤال اللي ملوش جواب.
وهناك... تبدأ الفرضية المستحيلة.

يوسف يرفع نظره ببطء، كأنه يسمع لأول مرة صدى الكلمات داخل رأسه،

ثم يهمس كأنه يخاطب شيئا لا يرى

- يعني... أنا مشيت على الحافة بين العلم والميتافيزيقا... وما وقعتش؟

فؤاد يبتسم بخفوت

- ورجعت منها... علشان تحكي لنا اللي شفته.

الخروج

المكان مستشفى د. فؤاد
الزمان الاثنين 29 فبراير 2016

كان صباح مميز ليوم لا يتكرر إلا كل أربع سنوات، وكأن الزمن نفسه يحتفل بخروجهما معا

الشمس ناعمة، ضوءها كأنه يسكب على الأرض خيوطا من غبار ذهبي.

باب المستشفى الحديدي الثقيل يفتح، تخرج السيارة ببطء.

يجلس يوسف بجوار أبيه، يتنفس الهواء كما لو أنه يتنفس الحرية للمرة الأولى.

ومن خلفة كانت تبتعد الحديقة التي كانت تملؤه بالرهبة.

أصبحت رأسه الآن هادئة، بلا أصوات صراخ، بلا قيود جلدية، وبلا كهرباء.

في المقعد الخلفي كانت أمه إلى جوارها ندى،

التي وضعت يدها على كتفه، مترددة قبل أن تسأله

- سرحان في إيه يا يوسف؟

يبتسم دون أن يلتفت لها

- كنت بفكر... إحنا فعلاً خرجنا؟
- طبعًا خرجنا،
- يعني خلاص. انتهت الغيبوبة.

ضحكت بخفة، أما هو فظل يراقب انعكاسه على زجاج السيارة.

رأى في الزجاج شيئا غريبا.

وجهه يتحرك أبطء من اللازم، ابتسامته تتأخر جزءًا من الثانية عن ابتسامته الحقيقية. كأن الانعكاس لا يثق في الزمن.

مرت لحظة صمت. أغلق عينيه وأخذ نفسا طويلا،

لكن النفس خرج بصوت آخر، أقل دفئا، أعمق. وفي داخل رأسه تردد صدى

- الهواء له طعم الحرية... يا يوسف، والأجمل إنها لينا إحنا الأتنين مع بعض.
الغريبة، أن انهارده يوم الاثنين، واليوم ده، 29 فبراير، مش بيتكرر غير كل 4 سنين مرة، الدنيا كلها فرحانا بخروجنا مع بعض، ده هيبقى عيد ملادنا بعد كده.

ابتسم يوسف ولم يرد.
اكتفى بأن مد يده وشد عل يد ندى قليلا، كأنه يذكر نفسه أن الجسد ما زال موجودا.
كانت رائحة العطر على معصمها تثير في رأسه صورا لذكريات متقطعة، لازال يوسف لم يتذكر كل شيء بعد!
السيارة تسير ببطء في طريق العودة. كلهم يبتسمون بصمت متعب،
أدار يوسف رأسه نحو النافذة، رأى إنعكاسه على الزجاج يبتسم له، لم يبادله الابتسام فقط أوم براسه، وواصل النظر إلى الأمام، متجاهلا صاحبه.

- أنا هنا... وأنا كمان.

الجملتان ارتدتا في رأسه دون أن يعرف أيهما نطق بها.
ضحك بخفة لم يفهمها أحد، أحكم ضم يديه أمام صدره، ثم أسند رأسه إلى المقعد وعينيه على الطريق، مرت لحظة قصيرة من السكون...ثم خيل إليه أن الطريق بدأ يتكرر، الأشجار نفسها، اللافتة نفسها، الضوء نفسه، كأنهم يسيرون في دائرة مغلقة، لا مغادرة فيها ولا وصول. قبل أن يغمض عيناه ندى وضعت يدها على كتفه وقالت لسناء:

- يوسف، نايم يا طنت

في رأسه، كان الظل يتمدد على مهل، يأخذ المساحة كلها كأنه يتنفس لأول مرة بعمق كاف قبل ان يأتيه الصدى في رأسه

- مفيش داعي تصحى دلوقتي... أنا هكمل عنك.

ابتسم يوسف ابتسامة ناعسة، بينما السيارة تبتعد في خط مستقيم نحو الأفق، وفي الزجاج الجانبي، انعكس ظله يسير وحده في الاتجاه المعاكس.

يوسف كان يبدو طبيعيا... لكن من ينظر طويلا في عينيه، كان سيرى هناك أنعكاس ازرق وكأنه لهيب، شخصا آخر... ينتظر أن ينسى صاحبه، ليحيا هو

— ✦ —

معضلة النهاية

المكان مكتب د. فؤاد
الزمان 25 ديسمبر 2021
بعد سنوات من تعافي يوسف وخروجه من المصحة،

جلس الدكتور فؤاد في مكتبه الهادئ، تتناثر أمامه الأوراق القديمة التي كانت تخص حالة يوسف زهران.

على المكتب صورة عائلية باهتة، ودفتر أزرق قديم، هو ذاته الدفتر الذي أحضره عبد الله زهران قبل سنوات، وقال له يومها اقرأه كويس يا دكتور... يمكن تفهم اللي ماقدرناش نفهمه.

اليوم، وبعد خمس سنوات من الهدوء، عاد الاسم نفسه يطرق أبواب مكتبه، ولكن ليس بصوت المريض، بل بصوتين آخرين؛ ندى، زوجة يوسف، ومجدي أخوها، وصديقه الأقرب.

كان فؤاد قد لاحظ التغير في نبرة صوتها وهي تتحدث عبر الهاتف حين طلبت مقابلته.

دخلت ندى الغرفة بخطوات متوترة، تتبعها نظرات القلق في عيني مجدي. وقبل أن تجلس قالت

- يوسف اتغير يا دكتور... بيرجع يقول إنه مش لوحده. بيقول إن في حد جواه بيتكلم... وبيتحرك مكانه ساعات.

جلست أمام المكتب، وجلس مجدي في المقعد المقابل، وقبل أن تعاود الحديث، قال لها د. فؤاد بهدوء الطبيب العارف بما سيقال

- قولي يا ندى... من إمتى بدأت الأعراض دي؟

قالت بصوتٍ متقطع

- من كام أسبوع. كان طبيعي جدًا، بيروح الشغل وبيضحك... لحد ما ابتدى يتكلم عن سيف تاني. بيقول إنه حاسس إنه بيرجع، وإنه ساعات بيبقى جوه دماغه، بيخليه يقول حاجات مش عايز يقولها.

تدخل مجدي

- وبعدين يا دكتور، بيحكيلي حاجات غريبة... بيقول إنه بيصحى من النوم يلاقي نفسه في مكان تاني، مش فاكر هو عمل إيه، وبيقول إن فيه حاجة بتحركه غصب عنه.

ظل فؤاد صامتا للحظة، ثم أدار نظره نحو النافذة كأنه يستعيد مشهدا قديما.

أمسك قلمه وبدأ يكتب ملاحظات قصيرة في دفتر جديد، ثم قال بنبرة تحليلية عميقة

- واضح إننا بنواجه تكرار لنفس الحالة، لكن المرة دي بصورة مختلفة. يوسف مش مجرد مريض انفصام كلاسيكي... لأ، هو حالة تراكب وعيين داخل جسد واحد.
والفرق إن وعي سيف، اللي كان المفروض يختفي، رجع من جديد... لكن المرة دي أكثر وعيا بذاته.

ندى بان عليها الرعب

- بس يا دكتور هو اتعالج! وبقاله خمس سنين طبيعي! إزاي كل ده يرجع؟

ابتسم فؤاد بمرارة وقال

- اللي حصل زمان ماكانش شفاء كامل يا ندى... كان توازن مؤقت بين الوعيين.
الروح، أو الوعي الدخيل قرر يهدأ لحد ما الجسد يتعافى، ولما حس إن يوسف فقد السيطرة، رجع تاني.

مجدي بصوت متشكك

- يعني حضرتك شايف إن سيف فعلاً رجع؟ ولا ده مرض؟

أجاب فؤاد بهدوء، وهو يشعل سيجارته

- سؤال مهم يا مجدي... وأنا نفسي مش عندي إجابة قاطعة.
لكن اللي شفته في الحالات دي، خصوصا في حالة يوسف بيقول إن الوعي ممكن ينقسم،
وممكن كمان يكون فيه كيان ثالث بيمتلك المساحة اللي بين الاتنين.

فتح فؤاد الدفتر القديم، يقلب صفحاته ببطء، حتى وصل إلى صفحة كتب فيها يوسف بخطٍ مهتز

من سيعيش سيكون يوسف.

توقف عندها، رفع عينيه وقال بصوت خافت

- دي كانت القاعدة اللي ربطت بينهم... ودي اللي رجعت تاني تحكم اللعبة.
لكن دلوقتي، اللي عايش مع يوسف مش سيف... ده كيان دخيل، كيان استغل الصراع اللي بينهم، وده أخطر ما يمكن يحصل لعقل إنسان.

ندى بخوف

- تقصد إيه بكيان دخيل؟
- يعني الكيان ده مش مجرد جانب من شخصيته...
ده وعي مستقل، استغل الصراع اللي بينهم لحد ما اكتسب وجود حقيقي.
يوسف فتح الباب من زمان، والكيان ده دخل ولسه موجود جوه ... ماخرجش أبداً.

سكت فؤاد لحظة، ثم أضاف بصوتٍ منخفض كأنه يهمس بسر علمي

- كنت فاكر دايما إن الروح بتفكر قبل الجسد...
لكن اللي شوفته في يوسف بيقول إن فيه أرواح ممكن تستغل الجسد.
ودي بقى المرحلة الأخيرة من الوعي المرافق، مش مجرد ازدواج، إنما اندماج شبه كامل بين الإنسان وكيان غير بشري،
كيان بيشوف الحياة من جوة الجسم، ويجربها، ويدمنها.

انحنت ندى للأمام بصوتٍ مرتعش

- يعني حضرتك بتقول إن اللي جوه يوسف... ممكن ميكونش سيف؟ إيه جن مثلاً!

رفع فؤاد عينيه إليها بثقل وقال

- أيوه يا ندى... ممكن ميكونش سيف.
ممكن يكون شيء تاني... هنسميه كيان قرر يعيش حياته داخل جسد الإنسان.

ظل الصمت يملأ الغرفة، لا يسمع سوى،
صوت بندول الساعة القديمة على الحائط.
كتب فؤاد ملاحظة أخيرة في دفتره
الحالة تجاوزت الطب والعقل. نحن أمام وعي دخيل، أو كما وصفها المريض بنفسه من **يعيش بداخلي ليس أنا**. ثم أغلق الدفتر، وقال لنفسه بصوت خافت كمن يختم نظرية حياته كلها
ربما ما ظنناه مرضا نفسيا... لم يكن إلا زيارة من كيان آخر يبحث عن تجربة الوجود

— ✦ —

الختام

الأحداثُ التي تحدث حولنا، مهما بدت بسيطة في عين الناظر، هي جزء من حدث مركزيّ ضخم، مسرحية كونية بإنتاج هو ميزانية العالم كله.

ليس هناك مجال للصدف في هذا المشهد، ولا مقاعد للمتفرجين.

فكلاًّ منا له دورٌ، لم يختاره بإرادته، بل أُجبر على القيام به.

الأحداث ليست مجرد وقائع تمر، بل كائنات تُولَد وتتنفس وتشيخ.

هي دوائر تتشابك في نسق لا يراه إلا من خرج – بشكل ما – من مدار الزمن.

ولكل دائرة مسار يجب أن يكتمل، ولكلٍّ منا مصير لا يُردّ.

فعندما تتخيل أنك امتنعت بإرادتك عن فعل أمرٍ ما، فاعلم أن هذا كان هو دورك المكتوب أصلاً: أن تمتنع.

وحين يأبى الجسدُ أن يشارك، يختار الوعيُ جسداً آخر، لأن الحدثَ أبدي؛ لا يفنى.

دوائر مكتملة، متشابكة في حركة مستمرة، ومن يقف خارجها... تسحبه إليها يدُ الغيب بلا رحمة، ليعيش القصة ذاتها، تحت قناعٍ آخر، في زمنٍ آخر، حتى تُغلق الدائرة على معناها.

وأنا... لستُ سوى الصدى الأخير الذي يذكّرهم حين ينسون، وأنّ ما يظنّونه صدفةً عابرة... ما هو إلا تكرارٌ سرمديّ للحظة أزلية واحدة.

ولم تنتهِ بعد

— ✦ —